

أجاثا كريستا

جريمة في قطار الشرق السريع



دار النجمة ★ للنشر والتوزيع

جريمة في قطار
الشرق السريع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أجاثا كريستي

جريمة في قطار
الشرق السريع

دار النجمة ★ للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناسر:

دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبق من الناسر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

الفصل الأول

في الساعة الخامسة من صبيحة يوم من أيام الشتاء وقف القطار السريع بمحطة حلب كالمعتاد، وكان هذا القطار يتكون من قاطرة وملحقاتها، ومطبخ ومركبة للطعام وأخرى للنوم وثالثة ورابعة من مركبات السفر العادية. دخل المحطة رجلان أحدهما شاب في مقتبل العمر يعرف موظفو المحطة أنه الملازم دوبوسك الفرنسي، والآخر قصير القامة يحجب وجهه بكوفية ولا يظهر من قسمات وجهه سوى أنفه الأحمر من تأثير البرد.

سار الرجلان حتى اقتربا من مركبة النوم، فصعد الرجل القصير إحدى درجتيهما، ثم وقف هناك يتحدث إلى الملازم الشاب في انتظار صدور الإشارة لرحيل القطار. لم يكن موظفو المحطة يعرفون شيئاً عن ذلك الرجل القصير القامة، ولم يكن دوبوسك نفسه يعلم عنه إلا أنه بلجيكي جليل الشأن ينتظره القائد الفرنسي بفارغ الصبر منذ أسبوع.

وقبل هذا الأسبوع، أو بمعنى آخر قبل أن يحضر البلجيكي، كان القائد الفرنسي في حيرة وقلق يرجع سببهما في الغالب إلى سلسلة من الحوادث العجيبة قد وقعت في الآونة الأخيرة، وكان أهمها حادث انتحار أحد كبار الضباط واستقالة ضابط آخر وصدور

طائفة من التعليمات العسكرية الصارمة، بيد أن الموقف تغيرَ تغيراً واضحاً بعد وصول ذلك البلجيكي القصير القامة، فحلّت مظاهر الارتياح والطمأنينة على وجه القائد الفرنسي محل القلق والجزع، وأُلغيت التعليمات العسكرية الاستثنائية التي أصدرها مؤخراً.

وفي فجر اليوم الذي نحن بصدده دعا القائد الملازم دوبوسك فكلفه بمرافقة البلجيكي الخفيّ إلى المحطة وتوديعه بكل إجلال واحترام. وقد سمع الملازم دوبوسك طرفاً من حديث دار بين القائد والرجل البلجيكي قبل أن يبرح هذا الأخير المعسكر إلى المحطة، وقد شدّ القائد على يد الرجل بحرارة ثم قال له بلهجة تنمّ عن الامتنان: لقد أنقذتنا وأنقذت شرف الجيش الفرنسي وحققت كثيراً من الدماء يا عزيزي بوارو، فكيف أشكر لك تفضلك بتلبية دعوتي واجتيازك هذه المسافة الطويلة كي...

فقاطعه بوارو قائلاً: لا تنسَ أنك أنقذت حياتي مرة يا سيدي الجنرال.

فردّ عليه الجنرال بكلمة تناسب المقام قائلاً إنه لم يفعل غير الواجب، ثم جرى على لسانه ذكر البطولة التي أظهرها البلجيكيون في الحرب الكبرى وغير ذلك من عبارات المجاملة، ثم انتهى الأمر بين الرجلين بأن تعانقا وشدّ كل منهما على يد صاحبه بحرارة.

أما عن هي الخدمة التي قام بها البلجيكي فذلك ما لم يعرف عنه الملازم دوبوسك شيئاً، فكل الذي كان يعرفه ويشعر به وهو واقف في انتظار رحيل القطار أن الجنرال أخرجه من فراشه في ذلك الزمهرير لمرافقة صديقه بوارو إلى المحطة. وأخيراً أقبل موظف عربة النوم فقال بالفرنسية محدثاً بوارو: هلاً تفضلت بالدخول يا

سيدي؟ القطار يوشك أن يتحرك.

وهنا لمعت عينا الملازم فرحاً، ثم اعتدل في مكانه وراح يلقي خطبة الوداع التي أعدها في ذهنه، فردّ عليه بوارو بلطف، ثم تحرك القطار وقفل الملازم عائداً وهو يفرك يديه التماساً للدفع وارتياحاً لخلاصه من مهمته.

* * *

سار السيد بوارو خلف موظف عربّة النوم فأرشده إلى المكان الذي حُجز له ثم قال: وها هي حقيبتك قد جئتُ بها إلى هنا يا سيدي. أظن أن سيدي ذاهب إلى إسطنبول، أليس كذلك؟

فأجاب بوارو وهو يضع في يده قطعة نقود فضية: بلى، ولكن أخبرني، هل يوجد بالقطار كثير من المسافرين؟

- لا يا سيدي، يوجد مسافران إنكليزيان فقط، أحدهما كولونيل بالجيش الهندي والآخر فتاة إنكليزية قادمة من بغداد.

* * *

في نحو الساعة العاشرة خرج بوارو إلى مركبة الطعام، فلم يجد بها غير الفتاة الإنكليزية التي قال عنها الموظف إنها قادمة من بغداد، وكانت طويلة القامة نحيلة القوام سمراء اللون تناهز الثامنة والعشرين من عمرها. راقبها بوارو قليلاً فأدرك من جلستها وكلامها عندما طلبت من الخادم قدحاً آخر من القهوة أنها خبرت الحياة في قطارات السكك الحديدية التي تتجاز المسافات البعيدة.

لم يجد بوارو ما يشغل به وقته غير الجلوس أمام إحدى الموائد ومراقبة هذه الإنكليزية الحسنة وهي جالسة جلستها الرزينة

وبين أصابعها قدح القهوة، وما هي إلا دقائق معدودة حتى فُتح باب مركبة الطعام فدخل رجل آخر طويل القامة نحيلها أسمر البشرة في نحو الخامسة والأربعين من عمره، فقال بوارو لنفسه حينما رآه: هذا هو الكولونيل الإنكليزي بغير شك، ثم أحنى الكولونيل قامته باحترام أمام الفتاة وهو يقول: طاب صباحك يا آنسة دبنهام.

- طاب صباحك يا كولونيل أربتنوت.

جلس الكولونيل ثم دعا الخادم فطلب منه أن يأتيه ببيض وقهوة، ثم رفع الكولونيل بصره فصعده ببطء إلى بوارو، ثم غمغم بألفاظ غير مفهومة.

ساد الصمت بين الكولونيل والفتاة برهة ثم أقبل الخادم حاملاً إفطار الكولونيل، وعندئذ بدأ الكولونيل يتكلم، فتحدث عن البنغاب في الهند، ثم ألقى على الفتاة بعض الأسئلة عن بغداد، ففهم بوارو من الألفة التي سادت بينهما بعد ذلك ومن بعض ألفاظ سمعها منهما أن الكولونيل يعرف بعض أصدقاء الفتاة معرفة شخصية وثيقة.

ثم سأل الكولونيل الفتاة عما إذا كان في نيّتها الذهاب مباشرة إلى إنكلترا بعد أن تمكث في إسطنبول قليلاً، فأجابته بأنه ليس في نيّتها أن تمكث في إسطنبول قليلاً أو كثيراً، فقال لها مبتسماً: على كل حال هذا من دواعي سروري لأنه في نيّتي كذلك مواصلة السفر إلى إنكلترا.

لاحظ بوارو أن الدم صعد إلى وجه الكولونيل عندما قال ذلك، ففهم أن صحبة الفتاة قد طابت له، ثم لاحظ بعد ذلك أنه رافقها إلى غرفتها.

وعندما حان موعد الغداء جلس بوارو منفرداً كعادته، أما الكولونيل فقد شارك الفتاة مائدتها، ولم يَدُرْ بين الاثنين حديث ولكنهما نهضا بعد الطعام فأطلاً من إحدى نوافذ المركبة على مدينة طوروس ومناظرها البديعة، ثم سمع بوارو الفتاة تقول: ما أجمل هذه المنطقة! ليتني أستطيع أن أجد عملاً في هذه المدينة.

فأجاب الكولونيل بحماسة: مهنتك، أعني مهنة تربية الأطفال، مهنة شاقة متعبة لأن المربية تجد نفسها بين نارين دائماً: صلف الوالدين وأوامرهما، وعناء الطفل ومضايقاته.

فضحكت الفتاة ثم أغرقت في الضحك قائلة: لا تظن ذلك يا كولونيل؛ فأنا أؤكد لك أن المربية تتمتع باحترام الوالدين دائماً.

فصمت الكولونيل، ولعله خجل من حماسه فلم يَدُرْ بينه وبين الفتاة حديث آخر في ذلك النهار؛ فقد استأذنته الفتاة وخلت إلى نفسها في غرفتها.

وفي منتصف الليل وصل القطار إلى قونيا، وهناك خطر لبوارو أن يتريض على رصيف المحطة قليلاً، فارتدى معطفه وترك عربة النوم ثم أخذ يسير جيئةً وذهاباً بجوار القطار، فوصل مرة في سيره إلى القاطرة فرأى شخصين محتجبين في الظلام فعرف من صوتهما أنهما الكولونيل والفتاة؛ فقد نطق الكولونيل باسم الفتاة بلهجة الاستعفاف: ماري...

فقاطعت الفتاة بلهجة أخرى غير تلك اللهجة الرزينة التي يعرفها بوارو: ليس الآن، ليس الآن، لا بد أن ينتهي كل شيء أولاً، وعندئذ...

وهنا رأى بوارو أن من الكياسة أن يبتعد.

في اليوم التالي خُيل إلى بوارو أنه قد حدث شجار بين الكولونيل والفتاة لأنهما لم يجتمعا إلا قليلاً ولم يتبادلا غير بضع كلمات في جوٍّ من الفتور، وخُيل إليه كذلك أن الفتاة قلقة لأمر ما، فغلب على ظنه أنها بكّت كثيراً لأنه رأى حول عينيها هالة سوداء.

ثم حدث في نحو منتصف الساعة الثالثة بعد ظهر ذلك اليوم أن وقف القطار فجأة، فأطلّ بوارو برأسه من النافذة فرأى بعض العمّال وموظفي القطار قد وقفوا في الطريق بجوار إحدى المركبات وهم يشيرون بأصابعهم إلى مكان معيّن تحت المركبة ويتحدثون باهتمام، ثم مرّ ببوارو موظف عربات النوم فاستوقفه وألقى عليه سؤالاً، فأجابه الموظف.

فانسحب بوارو من النافذة وكاد وهو يفعل ذلك أن يصطدم بالآنسة دبنهام التي أقبلت لتستعلم عن سبب توقّف القطار، فسألتها بالفرنسية باهتمام وقلق: هل وقع حادث؟ لماذا توقف القطار؟!

فأجابها: لا يا آنسة، لم يحدث شيء غير أن مركبة الطعام قد التهبت من الاحتكاك، ولكن العمال أطفؤوا النار في الحال، وهم يقومون الآن بإجراء الإصلاحات الضرورية، فاطمئني ليس ثمة خطر.

فقلبت شفتيها كأنما لا يعينها الخطر ثم قالت بقلق أيضاً: لكن ما العمل؟ من المقرّر أن يصل هذا القطار في السادسة وخمس وخمسين دقيقة، وبعد ذلك نجتاز البوسفور لنلحق بقطار الشرق الذي يبدأ سفره من شرق أوروبا إلى غربها في الساعة التاسعة تماماً، فإذا تعطلّ القطار في هذا المكان ساعة أو أكثر استحال علينا اللحاق بقطار الشرق.

فسألها: وهل يهملك ذلك كثيراً يا آنسة؟

- نعم، نعم، يهمني كثيراً، فيجب أن ألحق بذلك القطار.

ثم تركته ومضت في الطريق الموصّل إلى مركبة الكولونيل،
بيّد أنه لم يكن ثمة ما يدعو إلى قلقها؛ فقد تحرك القطار بعد عشر
دقائق، وقد أسرع السائق في الطريق فبلغ القطار المحطة التالية
في الموعد المحدد.

كان الجو عاصفاً والبوسفور مضطرباً، فافترق بوارو عن
الكولونيل والفتاة عند الشاطئ ولم يرهما بعد ذلك لأنه ركب سيارة
ذهبت به من جسر غلطة إلى فندق توكاتليان.

* * *

الفصل الثاني

سأل بوارو مدير الفندق عما إذا كان قد حُجزت له غرفة، فأجابه المدير بالإيجاب، ثم استفسر عن رسائله فعلم أنه قد ورد باسمه ثلاث رسائل وبرقية، فوضع الرسائل في جيبه ثم تناول البرقية فألقى عليها نظرة فاحصة. لم يكن ينتظر ورود هذه البرقية في ذلك الوقت لكنه فضّها ببطء ثم قرأ بها ما يلي: «حدث التطور الذي توقعته في قضية كاستر، وكان حدوثه فجائياً، عد في الحال».

لم يكد ينتهي من قراءة البرقية حتى ضرب الأرض بقدمه وقد ظهرت على وجهه علامات الضجر، ثم نظر إلى ساعته وقال لمدير الفندق: يجب أن أواصل سفري في الحال، فمتى يرحل قطار الشرق؟

- في الساعة التاسعة يا سيدي.

- هل تستطيع الاتصال بالجهات المختصة لتحجز لي مكاناً في عربة النوم.

- بكل تأكيد؛ فعدد المسافرين قليل في هذه الفترة من السنة. هل أحجز لك مكاناً بالدرجة الأولى؟

- نعم.

- حسناً، إلى أين تريد الذهاب؟

- إلى لندن.

ثم ذهب بوارو بعد ذلك إلى صالة الطعام، وبينما هو يتحدث مع الخادم إذا بيد توضع على كتفه وإذا به يسمع صوتاً يقول: ما أسعد هذه الصدفة يا عزيزي!

فنظر بوارو خلفه، فرأى رجلاً بدين الجسم قصير القامة ينظر إليه وعلى شفثيه ابتسامة تدل على السرور والارتياح، فنهض واقفاً وهتف: مرحى، هذا أنت يا بوك؟!

- كيف حالك يا بوارو؟

ثم شدّ كل منهما على يد صاحبه بحرارة وشوق.

كان السيد بوك بلجيكيّاً مثل بوارو، وكان يشغل وظيفة مدير عام شركة عربات النوم الدولية، وقد عرف بوارو منذ أعوام. قال السيد بوك: ما الذي جاء بك إلى هذا البلد النائي عن الوطن المحبوب؟

فأجاب بوارو: كنت في مهمة في سوريا.

- آه، وهل تنوي العودة إلى بلجيكا؟ ومتى تعود؟

- الليلة.

- هذا بديع، سأرحل معك فلديّ عمل في لوزان. هل ستسافر في قطار الشرق؟

- نعم، وقد طلبت من مدير الفندق قبل قليل أن يحجز لي مكاناً في عربة النوم، وكان بودّي أن أقضي في هذه المدينة بضعة

أيام، ولكنني تلقيتُ برقية تحمّ سفري إلى إنكلترا في الحال.
- آه، أنت رجل نشيط يا صاحبي، ويسرّني أن أعلم أنك
بلغتَ قمة الشهرة فأصبحتَ أعظم شرطي سري في بلجيكا.
فقال بوارو بتواضع: لقد خدمني الحظ فوفّقت إلى حل بعض
المشكلات البسيطة.

- لقد طبّقت شهرتك الآفاق يا صديقي. أنا سعيد جداً
لرؤيتك. والآن أتركك لتناول طعامك، وسوف أقابلك في القطار،
وربما قبل ذلك.

ثم انصرف السيد بوك، وأخذ بوارو يتناول طعامه، ولم
يصرفه اهتمامه بعدم تلطيخ شاربيه بالحساء عن إجمالة الطرف حوله
في قاعة الطعام ومراقبة الموجودين بما فُطر عليه من فضول. لقد
كان في قاعة الطعام ستة أشخاص يتناولون عشاءهم، غير أن اثنين
فقط من هؤلاء الستة لفتا نظر بوارو؛ فقد كانا جالسين حول مائدة
قريبة، وكان أصغرهما شاباً في نحو الثلاثين من عمره يدل مظهره
وقسمات وجهه وحركاته على أنه أمريكي، أما زميله فكان يُناهز
الخامسة والستين له رأس أصلع وفم باسم وقسماته تدلّ في ظاهرها
على البساطة وطيبة القلب.

غير أن بوارو رأى في عينيه ما يتعارض مع مظاهر البساطة
والطيبة؛ فقد كانت عيناه ضيقتين يلمع فيهما بريق الخبث والدهاء،
بل لاحظ بوارو أكثر من ذلك، لاحظ أن هذا الشيخ نظر إلى ناحيته
وأطال النظر لحظة، ثم انقلبت سحته في الحال ثم نهض واقفاً وهو
يقول لصاحبه الشاب بصوت أجشّ: ادفع الحساب يا هكتور.

وبعد أن فرغ بوارو من طعامه غادر القاعة ذاهباً إلى غرفة

الانتظار، وهناك قابل صديقه بوك، وفي تلك الأثناء رأى ذلك الشاب الأمريكي ومعه صاحبه الشيخ وهما يغادران الفندق، وقد سمع الثاني يقول: هل أرسلت الحقائق يا هكتور؟

فأجابه الشاب: نعم يا سيد راتشيت.

عندئذ نظر بوارو نحوهما وقال محدثاً السيد بوك: ما رأيك في هذين الرجلين؟

- إنهما أمريكيان.

- هذا واضح، وإنما أردتُ أن أسألك عن رأيك في شخصيتيهما.

- لقد رأيتهما في هذه الغرفة منذ نصف الساعة، والحق أنني لم أهتم بالبحث في أمرهما، ومع ذلك يُخَيِّل إليّ أن الشاب ظريف.

- والشيخ؟

- لم أطمئن إلى منظره، وأنت؟

فكّر بوارو لحظة ثم قال: لقد نظر إليّ في غرفة الطعام فخيّل إليّ أن وحشاً ينظر إليّ.

- ومع ذلك فمظهره يدعو إلى الاحترام.

- هذا حقيقي، فمظهره الخارجي هو الغلاف الذي يحتوي روحه، أما روحه فأكبر الظن أنها روح مجرم أثيم، ولو أنك رأيت...

وهنا كفّ بوارو عن الكلام لأنه رأى مدير الفندق يقترب منه

وعلى وجهه علامات الاهتمام، فقال مدير الفندق: يؤسفني أن أقول لك إنني لم أجد لك مكاناً في عربات النوم يا سيدي.

فصاح السيد بوك: كيف ذلك؟ لا يوجد مكان في هذا الوقت من السنة!

فأجاب مدير الفندق: هذا ما قيل لي.

فكر السيد بوك لحظة ثم التفت إلى بوارو قائلاً: اطمئن يا صاحبي لا تزال لدينا العربة رقم ١٦ التي نتركها دائماً خالية للطوارئ.

* * *

بعد ذلك ذهب الرجلان إلى المحطة، وهناك استقبل السيد بوك بالحفاوة والاحترام نظراً لمكانته عند مدير فرع مركبات النوم، ثم هرول أحد الموظفين لاستقباله فسأله: هل حجزت لي مكاناً.

- نعم يا سيدي، بالمركبة رقم ١.

- هل صحيح ما قيل لي بأن العربات جميعاً قد حُجزت؟

فابتسم الموظف مجيباً: نعم، وهذا من الغرابة بمكان!

- كيف ذلك؟ لا بد أن هناك بعثة من الصحفيين أو الساسة، أو أن هناك مؤتمراً سياسياً في بلد ما.

- لا علم لي بذلك.

- والمركبة رقم ١٦؟

- حُجزت كذلك يا سيدي.

- هذا غريب حقاً! لا بد من إيجاد مكان لصديقي هذا. ألا يوجد مكان بالدرجة الثانية؟

- لا يوجد.

وهنا قال بوارو: إذن أستطيع السفر في إحدى المركبات العادية.

فأجاب بوك: صبراً.

ثم التفت إلى الموظف فسأله: وهل جاء جميع المسافرين؟
فتردد الموظف لحظة ثم قال: جاؤوا جميعاً ما عدا صاحب الفراش رقم ٧.

فنظر السيد بوك إلى ساعته ثم قال: أمامنا أربع دقائق، فإذا لم يحضر هذا المسافر أمكننا الاحتفاظ بالفراش لصديقي بوارو. لكن مَنْ هو صاحب الفراش رقم ٧؟

فنظر الموظف إلى قائمة معه ثم أجاب: إنه رجل إنكليزي يُدعى هاريس.

- قلبي يحدثني بأنه لن يحضر. اذهب بالسيد بوارو وحقائبه إلى المكان الذي حُجز لهذا الإنكليزي، وإذا حضر السيد هاريس فقل له إنه جاء بعد فوات الوقت وإنه لم يكن في الإمكان حجز الفراش حتى اللحظة الأخيرة.

- سمعاً وطاعة يا سيدي.

- ومهما يكن من أمر فأنا موجود وعلى استعداد للمشكلة إذا نشأت.

تبع بوارو موظف شركة عربات النوم فذهب به إلى مركبة
وجد بها ذلك الشاب الأمريكي الطويل القامة الذي رآه في فندق
توكاتليان مع الشيخ ذي العينين الضيقتين، فظن بوارو أن هذا
الشاب هو السيد هاريس الذي حُجز له الفراش فسأله بالإنكليزية:
عفواً. هل أنت السيد هاريس؟

فأجاب الشاب بلطف: لا، اسمي ماكوين. لكن يوجد
بالمركبة فراش آخر فلعله الفراش الذي حُجز لك.

فشكره بوارو، ثم وضع الموظف حقائب الشرطيّ السريّ
البلجيكيّ بالقرب من الفراش رقم ٧، وبعد دقائق تحرك القطار
وبدأ رحلته عبر أوروبا.

* * *

الفصل الثالث

في صباح اليوم التالي تناول بوارو طعام الإفطار بمفرده، ثم قضى ساعات الصباح في دراسة القضية التي دُعيَ من أجلها إلى لندن. وحين حان موعد الغداء ذهب إلى مركبة الطعام فوجدها غاصّة بالمسافرين، ولكنه سمع صوت صديقه بوك يدعوه إلى الجلوس ليتناول الطعام معه على مائدته.

ثم تحدث الرجلان قليلاً، وبعد انتهاء الطعام اهتم بوارو بدراسة أحوال المسافرين. قال بوك: ليت لي براعة بلزك لأصوّر هؤلاء المسافرين الذين جمعت بينهم الظروف فراحوا يعيشون تحت سقف واحد كأنهم أعضاء أسرة واحدة، ثم هم لا يلبثون بعد ساعات أو أيام أن يتفرقوا كلٌّ في سبيله فلا يرى أحدهم صاحبه بعد ذلك.

فقال بوارو: ومع هذا لو وقع حادث...

- أنت كثير التشاؤم يا صاحبي، وأكبر الظن أنك أصبت بتخمة.

فضحك بوارو ثم أجاب: ربما؛ فأنا في الواقع لم أتناول طعاماً دسماً منذ أيام، وهذا الطعام الذي أتناوله الآن من أكثر ما

تناولت دسامة.

ثم أجال الطرف حوله بعد ذلك فرأى على المائدة المجاورة ثلاثة رجال يتناولون طعامهم في صمت وسكون، ففهم أنه لا توجد بينهم أية صلة، ولكنه أدرك من قسمات وجوههم وأساليبهم في تناول الطعام أن أحدهم أمريكي والثاني إنكليزي والثالث إيطالي، ثم رأى على المائدة التي تليها سيدة متقدمة في السن قد انفردت بالمائدة، وكانت من أبشع النساء اللائي صادفهن بوارو في حياته الطويلة الحافلة، ومما زاد في دماستها أنها كانت ترتدي ثياباً فاخرة لا يتفق لونها مع لون وجهها الممتقع.

لاحظ بوك أن صاحبه يطيل النظر إلى وجه السيدة العجوز وأنه يتأمل حليها الكثيرة من عقود وأقراط وخواتم فقال له: هل تعرفها؟ هي الأميرة الروسية دراغوميروف. لقد استطاع زوجها أن يهرّب أمواله إلى المصارف الأجنبية قبل الثورة، لذلك فهي تعتبر من أغنى الروسيات المهاجرات.

فأطرق بوارو برأسه لأنه كان قد سمع الكثير عن هذه العجوز في حين أردف بوك: ولكن ثروتها الواسعة لا تمنع الناظر إليها من الشعور بدماستها وقبحها.

فضحك بوارو ثم نظر إلى المائدة الرابعة فرأى حولها الفتاة الإنكليزية ماري دبنهام وقد جلست بين سيدتين إحداهما متقدمة في السن والثانية في العقد الثالث من عمرها وتدلّ قسماتها على أنها أمريكية، ولكنها كانت ثرثرة كثيرة الكلام. وانفرد بالمائدة الخامسة الكولونيل أربتنوت، وقد رآه بوارو وهو ينظر إلى ماري دبنهام، ثم تساءل: ترى هل دبّ بينهما خلاف؟ أم أن الفتاة وجدت

من مصلحتها كمرية يجب أن يتوفر لها حسن السمعة أن تتنكر
لصاحبها الذي لازمته طوال السفر؟

ثم حوّل بوارو نظره إلى موائد الجانب الآخر من المركبة
فرأى أمام إحداها سيدة ألمانية، أو سويدية في مقتبل العمر ترتدي
ثوباً أسود، وقد فهم من قسمات وجهها ومظهرها أنها ربما كانت
خادمة أو وصيفة.

ثم رأى حول مائدة أخرى فتى في مقتبل العمر يرتدي ثوباً
من الطراز الإنكليزي، لكن قسمات وجهه تدل على أنه من أهل
رومانيا أو بولونيا، وقد جلست أمامه فتاة في نحو العشرين من
عمرها ترتدي ثوباً يلائم لونها وقسمات وجهها، وكانت الفتاة
تتكلم بهدوء وتضحك بين الحين والحين ضحكة رقيقة عذبة،
فغمغم بوارو: هذه الفتاة حسناء... لعلهما زوجان.

فأطرق السيد بوك برأسه ثم أجاب: أظن ذلك، وأعتقد أن
الزوج موظف بالسفارة الهنغارية بإسطنبول.

ثم رأى السيد بوك أن سحنة صديقه بوارو قد تغيرت فجأة،
فقال له وهو يبتسم: لعل بصرك وقع على راتشيت الذي رأيته في
الفندق ولم يعجبك منظره؟

فأطرق بوارو برأسه ولم يجب، ثم تناول السيد بوك قدح
القهوة ونهض وهو يقول: سأعود إلى غرفتي، وإذا شئت فاتبعني
إليها متى فرغت من طعامك.

بقي بوارو وحده وبين يديه قدح القهوة، ثم أخذ المسافرين في
مغادرة قاعة الطعام فكانت الأنسة ماري دبنهام أول من نهض، ثم
تبعها الكولونيل، ثم انصرف الباقون واحداً بعد الآخر، ولم يبق

غير السيد راتشيت والشاب الأمريكي الوديع ماكوين الذي فهم بوارو أنه سكرتير أو ملحق بخدمة راتشيت البغيض.

ثم نهض راتشيت فهمس في أذن ماكوين بكلمة فانصرف هذا في الحال، ومَرَّ راتشيت بمائدة بوارو وقال له بالإنكليزية: هلاً تكرمتَ بعود ثقاب؟ أرجو المعذرة إذا كنتُ قد أزعجتك. اسمي راتشيت.

فأحنى بوارو قامته باحترام، وبينما هو يفتش في جيبه عن علبة ثقاب تناول راتشيت مقعداً فجلس أمام بوارو ثم أردف: أعتقد أن لي شرف الكلام مع السيد بوارو الشرطيّ السري البلجيكي الكبير، أليس كذلك؟

فأحنى بوارو رأسه باحترام مرة أخرى ولم يجب، ولكنه شعر بعيني راتشيت الضيقتين تتفحصانه بحدة، ثم قال راتشيت فجأة: لقد تعودنا في بلادنا على الصراحة، وتعودنا أكثر من ذلك أن نسلك السبل إلى أغراضنا بغير موارد، فأصغ إليّ يا سيد بوارو فلديّ عمل لك.

رفع بوارو حاجبيه ببطء ثم قال: أعمالي كثيرة يا سيد... يا سيد راتشيت، وأنا لا أقبل غير القضايا الهامة.

- طبعاً طبعاً، أنا أفهم مرادك، وأقول لك بصراحة إنك تستطيع أن تفيد من قضيتي فائدة عظيمة. هل فهمت؟ أعني أنني سأدفع لك مبلغاً طائلاً.

فصمت بوارو لحظة ثم قال: ما الخدمة التي أستطيع أن أؤديها لك يا سيد راتشيت؟

- أصغ إليّ يا سيد بوارو. أنا رجل غنيّ، غنيّ جداً، ولأكثر الأغنياء (ولاً أقول جميع الأغنياء) أعداء، وأنا لي عدو لدود...

- عدو واحد؟

فنظر إليه بحدة وسأله على الفور: ماذا تعني بهذا السؤال؟

- لقد علمتني التجارب يا سيدي أن الرجل الذي يحتلّ مركزاً يثير حوله العداء يكون له في العادة أكثر من عدو واحد.

وهنا تنفس راتشيت الصعداء كأنه ارتاح إلى هذا الجواب ثم قال بسرعة: هذه نظرية معقولة، وسواء أكان لي عدو أو أعداء فأنا يهمني أن أدافع عن سلامتي على كل حال.

- سلامتك؟ ماذا تعني؟

- لقد كانت حياتي عرضة لكثير من الأخطار يا سيد بوارو، ولكنني أصبحت الآن في مركز يمكنني من الدفاع عن نفسي.

ثم أخرج من جيبه مسدساً قلبه بين أصابعه، ثم أعاده إلى جيبه وأردف قائلاً: فأنا كما ترى لست بالرجل الذي يصحّ أن يؤخذ على غرة، وعلى الرغم من ذلك فأنا أحب أن ألجأ إلى كل وسيلة وإلى كل إجراء يقضي بهما الحذر لتتضاعف طمأنيتي، وأعتقد أنك الرجل الذي يستطيع الدفاع عني، وسأدفع لك أجراً، تذكر هذا يا سيد بوارو، سأدفع لك أجراً باهظاً.

فرمقه بوارو بعينه ولم يبدُ على وجهه ما يدلّ على أنه قد قبل الصفقة أو رفضها، فحاول راتشيت -عبثاً- أن يقرأ الجواب في ملامحه. ثم أجاب بوارو أخيراً: آسف جداً يا سيدي؛ فأنا لا أستطيع قبول هذه المهمة.

فنظر إليه راتشيت بحذر واحتراس ثم قال: حدّد بنفسك المبلغ الذي تريده.

هز بوارو رأسه ثم قال: أنت لا تعرفني يا سيدي. لقد كنتُ حسن الحظ في عملي؛ فقد جمعت ثروة طائلة تقوم بحاجتي وبأكثر من حاجتي، ولذلك لا أقبل من المهام غير المهمة التي أرتاح إلى العمل بها.

- أنت رجل حاذق شديد الحرص يا سيد بوارو. قل لي بصراحة، هل تقبل عشرين ألف دولار؟
- لا.

- أخشى إذا طعمت في المزيد ألا تجدني على استعداد لإجابة طلبك، فأنا أعرف المهمة التي سأنيطها إليك، وأعرف الأجر الذي يناسبها.

- أنا أعرف ذلك أيضاً يا سيد راتشيت.

- هل لك اعتراض على اقتراحي؟

فنهض بوارو وهو يقول: عذراً إذا قلت لك إن ملامح وجهك لا تعجبني، لهذا لا أقبل مهمتك، وهذا كل ما في الأمر.

قال ذلك ثم غادر مركبة الطعام.

* * *

الفصل الرابع

وصل قطار الشرق إلى محطة بلغراد في الساعة التاسعة من مساء اليوم الأول، وكان مقرراً أن يبقى القطار بالمحطة نصف الساعة قبل أن يواصل السفر.

شعر بوارو بالسأم والملل، فغادر مركبته وترك القطار وأخذ يمشي على الرصيف جيئةً وذهاباً، وكان الجو عاصفاً والبرد شديداً، فلم يُطَق بوارو البقاء على الرصيف طويلاً فرجع إلى مركبته، وهناك قابله موظف عربة النوم فأنبأه أن حقائبه نُقلت إلى المركبة رقم ١ التي كان يقيم فيها السيد بوك، فسأله بوارو: وأين ذهب السيد بوك؟

- لقد انتقل إلى مركبة جديدة ألحقت بالقطار.

فانطلق بوارو للبحث عن صديقه بوك حتى عثر عليه في مركبته، فحاول أن يشكره، لكن السيد بوك قاطعه قائلاً: لا تنسَ أننا أصدقاء يا بوارو، ثم لاحظ أنك ستسافر إلى كاليه، أما أنا فسأغادر القطار قبل ذلك. البرد شديد، أليس كذلك؟ وأنا مرتاح إلى الإقامة في هذه المركبة ولا يوجد معي فيها غير طبيب يوناني.

وبعد نصف ساعة بالضبط صدرت إشارة الرحيل فودع بوارو صديقه ثم ذهب إلى غرفته الجديدة، وكانت مجاورة لمركبة الطعام، وكان الحرج قد زال تماماً فأخذ المسافرون يتحدث بعضهم إلى البعض كأنهم أفراد أسرة واحدة؛ فعندما انطلق بوارو في طريقه إلى غرفته رأى الشاب ماكوين يتحدث إلى الكولونيل أربتنوت، غير أن الأوّل لم يكذب يراه حتى كفّ عن الكلام فجأة ونظر إليه بدهشة ثم هتف به: ماذا حدث؟! لقد ظننتُ أنك تركت القطار في بلغراد.

فابتسم بوارو وأجاب: أحسبني ذكرتُ لك أنني ذاهب إلى إنكلترا.

- لكن حقائبك نُقلت من المركبة التي كنتَ تقيم بها معي.

- أجل، فقد انتقلتُ إلى مركبة أخرى.

- آه!

ثم عاد إلى حديثه مع أربتنوت فتركهما بوارو، ثم قابل في المركبة التالية تلك السيدة الأمريكية التي تُكثر من الكلام عن ابنتها، والتي رآها للمرة الأولى مع ماري دبنهام وسيدة أخرى متقدمة في السن حول إحدى موائد مركبة الطعام، وكان قد علم أنها تُدعى السيدة هوبار وأنها تعمل مع زوجها وابنتها في مدرسة أمريكية بإسطنبول. لقد رآها تتحدث مع السيدة المتقدمة في السن وتلحّ عليها في قبول إحدى المجلات لتقضي الوقت في قراءتها، فأنصت بوارو إلى حديثهما لحظة اتفق في خلالها أن تُفتح باب مجاور فخرج منه أحد الخدم، فتمكن بوارو من أن يرى راثشيت جالسا في تلك المركبة التي فُتح بابها وخرج منها الخادم، وقد

رآه راتشيت كذلك فانقلبت سحتته في الحال ، ثم أغلق الباب وراء الخادم.

ودّعت السيدة هوبار السيدة العجوز التي دخلت غرفتها بعد أن أرغمتها الأولى على قبول مجلة ، وعندئذ التفت السيدة هوبار التي ذاعت شهرتها في القطار كامرأة ثرثرة قائلة لبوارو: مسكينة هذه السيدة؛ فهي سويدية لا تجيد الإنكليزية، لكنها على جانب عظيم من طيبة القلب، وقد علمتُ منها أنها تعمل بإحدى الجمعيات الخيرية وأنها تمقت قراءة المجلات الحديثة، لكنني نجحتُ في حملها على قبول إحدى المجلات التي أقرؤها.

وصمتت لحظة قبل أن تستطرد قائلة: ولكن حدثني يا سيدي، هل رأيتَ الرجل الذي يقيم في الغرفة المجاورة، ذلك الذي يدعونه راتشيت؟ يوجد في تكوين هذا الرجل خطأ من الأخطاء؛ فمنظره لا يطمئن، كما أن وجوده في القاعة المجاورة يزعجني حقاً، وأكبر ظني أنه قاتل أو لص من لصوص القطارات الذين نسمع عنهم ونقرأ في الصحف عن حوادثهم. انظر إلى هذا الشاب الوديع.

ثم أشارت إلى ماكوين وكان يدنو منهما ومعه الكولونيل، ثم أردفت السيدة قائلة: مما يدعو إلى الأسف حقاً أن يكون هذا الشاب الوديع سكرتيراً لهذا الوحش المقيت.

واقترب ماكوين والكولونيل وكان الأول يقول للثاني: تعالَ معي إلى غرفتي؛ فمازلتُ أودّ أن أعرف المزيد عن سياسة بريطانيا في الهند. من المسلّم به أن...

فمرّا ولم يسمع بوارو بقية الحديث، ثم انصرف بوارو إلى

غرفته بعد ذلك ، وكانت مجاورة لغرفة راتشيت من الجانب الآخر ، وهناك خلع ثيابه فتمدد في فراشه ثم أخذ يطالع بعض الصحف حتى انقضت ساعة أو بعض ساعة ، ثم أطفأ المصباح واستغرق في النوم.

وبعد بضع ساعات استيقظ بوارو فجأة ، فعرف في الحال ما أيقظه ؛ فقد عرف أنه استيقظ على صوت صرخة صدرت من مكان قريب ، ثم سمع على إثر تلك الصرخة رنين جرس يدوي بشدة ، فاستوى جالساً في فراشه وقد أضاء المصباح ، فلاحظ أن القطار قد توقف ، وقد خيل إليه أنه وقف في إحدى المحطات ، لكنه لم يسمع شيئاً من الجلبة التي تُسمع عادة في المحطات.

ثم تذكر أن راتشيت يقيم في الغرفة المجاورة ، ففتح باب غرفته وأطل منه ليستطلع الأمر ، وعندئذ رأى موظف شركة عربات النوم وهو يهرول في المركبة ناحية غرفة راتشيت ، ثم شاهده يدق باب الغرفة لكنه لم يسمع جواباً ، فدق الباب مرة أخرى.

وفي تلك اللحظة دوى الجرس ، فرأى الموظف مصباحاً كهربائياً صغيراً (هو مصباح الجرس) يضيء فوق باب الغرفة المجاورة لغرفة راتشيت ، فترك غرفة هذا الأخير ودق باب الغرفة التي أضاء المصباح فوق بابها ، وعندئذ سمع بوارو صوتاً يقول محدثاً الموظف: معذرة ؛ فقد ضغطت زر الجرس خطأ.

بعد ذلك استلقى بوارو على فراشه وقد اطمأنّ باله ، فنظر إلى ساعته فوجدها الواحدة إلا بضعاً وعشرين دقيقة ، فأطفأ النور وحاول أن ينام.

* * *

الفصل الخامس

حاول بوارو عبثاً أن ينام، ولكن أدهشه السكون الذي يحيط بالمحطة، فتساءل: ترى أية محطة هذه؟

وفي أثناء أرقه إذا به يسمع وقع خطوات راتشيت في الغرفة المجاورة وهو يروح ويجيء كالأسد الحبيس، ثم شعر بوارو فجأة بالظماً فتذكر أنه نسي أن يطلب زجاجة ماء قبل أن ينام، فاستوى على فراشه وأضاء المصباح ثم مد يده ليضغط الزر.

وفي تلك اللحظة دق الجرس بشدة وعنف، فجذب بوارو يده ليتمكن عامل مركبات النوم من تلبية دعوة المسافر الذي دق الجرس قبله، فسمع بوارو وقع خطوات العامل ثم سمع ضجة وجلبة تبيّن فيها صوت السيدة هوبار تلك الأمريكية الثرثرة التي لا تكفّ عن ذكر ابنتها في كل حديث تتكلم فيه، ثم انتظر بوارو حتى هدأت الضجة فدق الجرس، فأقبل العامل في الحال ثم فتح الباب، فقال له بوارو: هلاً أتيّتي بزجاجة ماء؟

- حسناً يا سيدي.

ومن الظاهر أنه رأى في بريق عيني بوارو ما طمأنه إليه، فأشعره بوارو أنه سمع ما دار بينه وبين تلك الأمريكية الثرثرة،

فراح العامل يقول: أرايت في حياتك امرأة كهذه الأمريكية يا سيدي؟

فابتسم بوارو ثم سأله: ماذا فعلت؟

- لقد راحت تدقّ الجرس بعنف حتى خُيل إليّ أن حريقاً قد شبّ في غرفتها، وعندما ذهبتُ إليها وجدتها في حالة اضطراب شديد، وقالت لي بلهجة التأكيد إن رجلاً دخل غرفتها، فلما فتشتُ الغرفة ولم أجد بها أحداً سألتُها من أي باب دخل، فأشارت إلى الباب الذي يفصل بين غرفتها والغرفة المجاورة، وهذا الباب موصد من الداخل ويُفتح من غرفتها لا من الغرفة المجاورة، وقد بذلتُ جهدي حتى استطعتُ أخيراً أن أقنعها بأنها واهمة. العمل لا يُطاق مع أمثال هؤلاء الناس حقاً، وفي مثل هذه الظروف فالثلوج تحيط...

فقاطعه بوارو: الثلوج؟!

- نعم يا سيدي، ألم تلاحظ أن القطار توقف؟ الثلج يحيط بنا من كل ناحية ولا يعلم أحد إلا الله متى يتمّ لنا الخلاص من هذه الورطة!

- وأين نحن الآن؟

- بين فنكوفي وبرود.

فهزّ بوارو رأسه بضجر ثم انصرف الموظف، وبعد لحظة عاد بالماء المعدني ثم أغلق الباب وذهب في طريقه.

تناول بوارو جرعة من الماء وحاول أن ينام، وعندما أوشك أن يغلبه النعاس سمع فجأة صوت سقوط جسم ثقيل على باب

مجاور، فنهض مذعوراً وأضاء المصباح، ثم فتح باب غرفته وأطل منه، ولكنه لم يرَ في رواق المركبة غير سيدة تسير ببطء وهي ملتفة بوشاح أحمر، فقال لنفسه وهو يعود إلى فراشه: لا بد أنني قد أُصبت بمرض عصبي.

ثم نام فاستغرق في النوم حتى الصباح.

* * *

عندما استيقظ بوارو كانت تمام الساعة التاسعة، فارتدى ثيابه ثم خرج إلى غرفة الطعام، وهناك وجد التذمر عاماً بين جميع المسافرين، وقد أزيلت هذه النكبة العامة (نكبة تعطل القطار) ما بقي من آثار الحرج بين المسافرين، فداروا بعضهم حول البعض وراح كل منهم يتكلم عن متاعبه وأثر عطل القطار على شؤونه ومصالحه.

كان صوت السيدة هوبار يحجب أصوات سائر المسافرين، فسمعها بوارو وهي تندب حظها قائلة: لقد خدعتني ابنتي؛ فقد قالت لي إنني ليس عليّ إلا أن أجلس في القطار وسيذهب بي إلى باريس، وها هو القطار قد وقف في منتصف الطريق، ومن يدري كم من الأيام سوف تنقضي قبل أن يواصل القطار سفره؟ ومن المفترض أن أرحل إلى أمريكا توأ؛ فقد حجزتُ لنفسِي مكاناً في باخرة ستبحر بعد غد، فكيف ألغي تذكرتي؟ يا إلهي! أكاد أن أُجن.

ثم سمع بوارو الرجل الإيطالي يقول إن لديه عملاً هاماً في ميلانو يستوجب وصوله في الوقت المحدد، وراحت السويدية تبكي وتتنحب وتقول إن أختها وأولادها ينتظرونها، وإن فزعهم

سيكون عظيماً إذا لم تصل في الوقت المقرر أو إذا لم تبعث إليهم بكلمة تطمئنهم، ولكن كيف تتصل بهم؟

وسألت ماري دنبام بشيء من الضجر: هل سيمكث القطار هنا طويلاً؟

فلاحظ بوارو من صوته وقسمات وجهها أنها تشعر بمثل القلق الذي استولى عليها حين تعطل قطار حلب. ومرت ساعات الصباح ببطء، فظل أكثر المسافرين بمركبة الطعام ومن بينهم بوارو، وكان هذا الأخير ينصت إلى ثرثرة السيدة هوبار حين أقبل موظف عربات النوم فهمس في أذنه قائلاً إن السيد بوك يحبيه ويرجوه أن يتكرم بمقابلته، فنهض بوارو في الحال ثم اعتذر للسيدة هوبار وغادر مركبة الطعام في أثر العامل.

لم تكن الغرفة غرفة السيد بوك لأن المركبة كانت إحدى مركبات الدرجة الثانية، ثم فُتح الباب فرأى بوارو صديقه بوك جالساً في أحد الأركان، ثم رأى شاباً واقفاً يطل من إحدى النوافذ، وعندما همّ بوارو بالدخول اعترضه رجل ضخّم الجثة عرف بوارو من ثيابه أنه كبير ملاحظي القطار، وقد أراد هذا الرجل أن يمنع بوارو من الدخول، لكن السيد بوك هتف في الحال: آه، هذا صديقي العزيز، دعه يدخل. ادخل يا بوارو؛ أنا في أشد الحاجة إليك.

وهنا تنحّى كبير الملاحظين عن الباب فدخل بوارو، فمرّ برجلين جالسَيْن في أحد الأركان، فذهب لتوّه إلى حيث كان صديقه بوك، ثم تناول مقعداً فجلس عليه قبالة صاحبه. لاحظ بوارو من انقلاب سحنة السيد بوك أن أمراً جليلاً قد وقع بلا شك فسأله في الحال: هل حدث شيء؟

- بل حدثت أشياء يا صديقي، هبوط الثلج أولاً وعُطل
القطار ثانياً والآن...

ثم كفّ عن الكلام، وعندئذ سمع بوارو آهة عميقة تنبعث
من صدر كبير ملاحظي القطار فسأل بوارو: والآن ماذا؟

فأجاب السيد بوك بلهجة تدل على اليأس: والآن يوجد أحد
المسافرين قتيلاً في غرفته.

فهتف بوارو: أحد المسافرين! أيهم؟

- رجل أمريكي يُدعى... يُدعى... يُدعى راتشيت، نعم،
يُدعى راتشيت، أليس كذلك؟

ثم رفع عينيه إلى ملاحظ القطار الذي أجاب: بلى يا سيدي،
يُدعى راتشيت.

نظر بوارو إلى الملاحظ فرآه ممتقع الوجه مرتجف الأوصال
فقال له: خير لك أن تستريح في فراشك يا هذا؛ فأنا أخشى عليك
أن تفقد رشدك.

فأطرق الرجل برأسه ولم يجب، ثم التفت بوارو إلى بوك
فقال له: هذا مخيف، قتيل في القطار!

فقال بوك: نعم يا صديقي، هذا مخيف، قتيل في القطار، بل
قتيل في إحدى عربات النوم وفي ظروف عجيبة؛ فالقطار معطل،
وقد نقضي هنا عدة ساعات أو عدة أيام قبل أن نتمكن من الاتصال
بالسلطات ذات الشأن. لقد جرت العادة أن ترسل السلطات
في البلاد التي نجتازها أحد رجال الشرطة لمرافقة القطار، أما
يوغسلافيا فإنها لا تهتم باتخاذ مثل هذا الإجراء الضروري.

- الواقع أن الوضع دقيق.

- بل ويوجد ما هو أسوأ، آه.

ثم التفت إلى الرجل الذي كان مطلاً من النافذة فقال له:
دكتور قسطنطين، نسيْتُ أن أقدم لك صديقي بوارو.

فالتفت الطبيب إلى بوارو فأحنى رأسه باحترام، ففعل بوارو
مثل ذلك ثم قال بوك: يرى الدكتور قسطنطين أن القتل حدث حول
الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.

فقال الطبيب: الواقع أنه من الصعب التحديد في مثل هذه
الظروف، ولكنني أستطيع أن أؤكد أن الجريمة وقعت بين منتصف
الليل والساعة الثانية.

فسأل بوارو: ومتى شوهد السيد راتشيت على قيد الحياة
لآخر مرة؟

- شوهد على قيد الحياة لآخر مرة في الساعة الواحدة إلا
الثلاث لأنه تكلم إلى أحد ملاحظي عربات النوم في هذا الوقت.

فقال بوارو: هذا صحيح؛ فقد سمعتُ هذا الحديث بنفسني،
ولكن ألم يره أحد بعد ذلك؟

ثم قال الدكتور اليوناني: لقد وجدنا نافذة غرفة السيد
راتشيت مفتوحة على مصراعها مما يدل على أن القاتل فرّ من
النافذة، ولكنني أعتقد غير ذلك وأؤكد أن النافذة لم تُفتح إلا
بقصد التضليل؛ فلو أن القاتل فرّ من النافذة لرأينا آثار أقدامه على
الثلوج لكننا لم نر شيئاً من هذه الآثار.

فسأله بوارو: ومتى اكتشفت الجريمة؟

فنظر السيد بوك إلى ملاحظ عربات النوم وقال له: أجب يا ميشيل.

فقال الرجل وهو لا يزال ممتنع الوجه: لقد ذهب خادم راتشيت إلى غرفة سيده في صباح اليوم فطرق بابها، لكنه لم يسمع جواباً، وبعد نصف الساعة ذهب ملاحظ عربة الطعام ليسأل السيد راتشيت عما إذا كان ينوي تناول طعام الفطور في غرفته، فطرق الباب هو الآخر، لكنه لم يسمع جواباً.

- كم كانت الساعة وقتذاك؟

- كانت الساعة الحادية عشرة.

- ثم ماذا؟

- عندئذ دعاني ملاحظ عربة الطعام ففتحتُ باب الغرفة بالمفتاح المزدوج الذي معي، ثم دفعتُ الباب لكنني وجدته مغلقاً بالمزلاج من الداخل، وكان الهدوء يخيم على الغرفة فخفت أن يكون السيد راتشيت مريضاً، فدعوتُ بعض الموظفين ففتحنَا الباب عنوة، وعندئذ رأينا... يا لهول ما رأينا!

فغمغم بوارو بلهجة المفكّر: كان الباب مغلقاً وموصداً بالمزلاج من الداخل؟ ما رأيكم في فكرة الانتحار؟ ألا يمكن أن يكون الرجل قد مات منتحراً؟

ضحك الطبيب اليوناني متهمكماً وقال: هل سمعت في حياتك أن رجلاً انتحر بأن طعن نفسه اثنتي عشرة طعنة في مواضع مختلفة.

فحملق بوارو في وجه الطبيب وقال: اثنتا عشرة طعنة! يا

إلهي! هذا يدلّ على منتهى القسوة والوحشية.

فقال كبير الموظفين بالقطار: أظن أن المجرم امرأة؛ فالنساء هنّ اللاتي ينتقمن بمثل هذه الفظاعة.

فنظر إليه الدكتور قسطنطين وقال: إذا كان المجرم امرأة فلا بد أنها في مقتبل العمر وعلى جانب عظيم من القوة لأن بعض الطعنات كانت من الشدة بحيث حطمت الضلوع ومزقت الأعصاب والعضلات.

فسأل بوارو: ألا تظن أنها جريمة فنية مدبرة؟

فأجاب الطبيب: لا أستطيع الحكم بأن الجريمة مدبرة، ولكنني أجزم بأنها غير فنية، فالقاتل المحترف الذي حذق فنون الإجرام لا يضرب ضرباً عشوائياً ولا يطعن يميناً وشمالاً كما هو الحال في هذه الجريمة، وقد خُيل إليّ حين رأيت الجثة والجروح أن القاتل أغمض عينيه وراح يطعن حيثما اتفق له.

قال بوارو: وأنا بدوري أستطيع إمدادكم بنبا قد لا تعلمونه، فقد كلمني راتشيت أمس وفهمتُ من كلامه أن هناك خطراً على حياته.

فهتف بوك: هل قال لك ذلك صراحة؟ إذن لا ريب أن يكون القاتل من أولئك الأمريكيين الجبابرة الذين يستخدمون المسدس في وضوح النهار وعلى مرأى وسماع من جميع الناس، ولعلّ مما يؤيد رأيي أن بالقطار رجلاً أمريكياً ضخماً الجثة تدلّ ثيابه وحركاته على أنه ليس من كرام الناس.

ثم نظر إلى بوارو قبل أن يستطرد قائلاً: تكلم يا صديقي، أنت

تفهم ماذا أعني، وثقتي في قدرتك عظيمة، ولا بد أنك ستعالج الموضوع بما عُرف عنك من المهارة والحدق. لا، لا ترفض أن أتكلّم إليك كمدير شركات عربات النوم، فليس أيسر علينا -متى جاءت الشرطة اليوغسلافية- من أن نقول إن جريمة وقعت هنا وهذه تفصيلاتها وهذا هو القاتل، أما إذا تركنا الأمر كله لرجال الشرطة فستعرض جميعاً لمضايقات لا نهاية لها، وربما تعتقل الشرطة بعض الأبرياء من المسافرين أو يعاقبونهم عن السفر على الأقل، فلماذا لا نوفر على أنفسنا كل هذه المضايقات ونعمل بأنفسنا على إماطة اللثام عن الحقيقة ومعرفة دقائق الجريمة وأسبابها وفاعليها؟ وأنت بالطبع خير من يستطيع القيام بهذه المهمة، فأنا واثق من أنك ستفرغ منها قبل حضور الشرطة، فما قولك؟

- ولكن لنفرض أنني لم أستطع معرفة القاتل.

- لا تقل هذا يا عزيزي؛ فشهرتك طبقت الآفاق، وهي شهرة أعلم أنك نلتها عن جدارة واستحقاق، وجميع الناس في بلجيكا يعترفون لك بالقدرة، وزملاؤك يُعجبون ببراعتك في حل المعضلات. الجريمة محصورة في حيز ضيق، والقاتل موجود بين المسافرين، فليس أيسر عليك أن تستقدم المسافرين واحداً بعد الآخر فتلقّي عليهم ما تشاء من الأسئلة، وسنكون كلنا رهن إشارتك، فما قولك؟

ثم نظر إلى صديقه مستعظفاً، فأجاب بوارو: لقد كنتُ أفكر منذ نصف الساعة في أن وقتاً طويلاً سنقضيه في ضجر وملالة قبل أن يواصل القطار مسيره، ولكنني أرى الآن أننا سنمضي هذا الوقت في حل مشكلة ممتعة. نعم يا صديقي، أعترف لك بأن في هذه المشكلة ما يغريني على التحقيق فيها.

- ستجدنا كلنا في خدمتك وطوع أمرك.

- يجب قبل كل شيء أن أحصل على رسم تخطيطي للمركبة التي وقعت فيها الجريمة، وعلى معلومات مختصرة عن المسافرين الذين يشغلونها، كذلك أودّ أن ألقى نظرة على جوازات السفر والتذاكر.

فانطلق ميشيل في الحال لأداء هذه المهمة في حين قال بوارو: هل يوجد بالقطار مسافرون آخرون؟

فأجاب السيد بوك: هذه المركبة لا يشغلها سواي والدكتور قسطنطين، أما المركبة التي ألحقت بالقطار في بوخارست فيشغلها شيخ أعرج يعرفه ميشيل حق المعرفة، ثم توجد مركبة إسطنبول-كاليه، وهي المركبة التي وقعت فيها الجريمة، ثم مركبة الطعام ثم المركبات العادية. والمركبات العادية منفصلة تماماً عن مركبات شركة عربات النوم، حيث يوجد بينهما باب مغلق دائماً، ولا أظن أن المجرم يستطيع الوصول من المركبات العادية إلى مركبة إسطنبول-كاليه.

فسأل بوارو ببطء: إذن يجب أن نبحث عن المجرم في مركبة إسطنبول-كاليه، أليس هذا رأيك يا سيدي الطبيب؟

فأجاب الطبيب اليوناني: بلى، هذا رأيي؛ فقد تعطل القطار نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، ولا أظن أن أحداً استطاع أن يغادر القطار بعد ذلك.

فأطرق بوك برأسه ثم قال: إذن فالمجرم بيننا.

* * *

الفصل السادس

قال بوارو: قبل كل شيء يجب أن أرى السيد ماكوين سكرتير القتل؛ فربما استطاع أن يدلي بمعلومات ترشدنا إلى القاتل.

فقال بوك: أنت تبدأ من حيث يجب بلا شك.

ثم التفت إلى ملاحظ عربة النوم وقال له: قل للسيد ماكوين أن يحضر في الحال.

وفي تلك اللحظة أقبل ميشيل وبين يديه مجموعة من جوازات السفر والتذاكر، فتناولها بوارو وهو يقول: شكراً لك، تستطيع أن تذهب لعملك الآن، وسأستمع إلى شهادتك فيما بعد.

فانصرف ميشيل ثم أردف بوارو قائلاً: ويهمني بعد سماع أقوال السيد ماكوين أن أزور غرفة القتل، وكل رجائي أن يرافقني الدكتور قسطنطين في هذه الزيارة.

فقال الطبيب اليوناني: بكل تأكيد.

عندئذ دخل ماكوين فنظر إلى الحاضرين وعلى وجهه علامات الدهشة، فنهض بوك واقفاً ليقدم له مقعده وهو يقول: المكان ضيق ولا توجد به المقاعد الكافية، فهل تفضل بالجلوس هنا قبالة السيد بوارو؟

ثم التفت إلى أحد الخدم قائلاً له: اطلب من جميع المسافرين أن يغادروا مركبة الطعام؛ فهي -على ما أعتقد- أفضل مكان يستطيع فيه السيد بوارو أن يواصل عمله.

وراح ماكوين ينقل بصره بين بوارو وبوك وهو لا يكاد يفهم شيئاً، ثم راح يقول بالفرنسية السقيمة: ماذا حدث؟! لماذا...؟ هل وقع حادث في القطار؟

فرد بوارو بالإنكليزية: نعم، لقد وقع حادث، ويؤسفني أن أنقل إليك خبراً سيئاً.

وصمت بوارو لحظة ثم أردف: لقد مات السيد راتشيت.

فأطلق ماكوين صفيراً بشفتيه ولمعت عيناه، لكن لم يظهر على وجهه شيء من علامات الدهشة أو الحزن، ثم قال ببطء: إذن فقد نالوا منه أخيراً.

- ماذا تعني يا سيد ماكوين؟

فتردد ماكوين في حين أردف بوارو: لقد استنتجت في الحال أن راتشيت مات قتيلاً، أليس كذلك؟

هنا فقط ظهرت علي وجه ماكوين علامات الدهشة فهتف: ألم يمُت قتيلاً؟ لا بد أنه قُتل، وهذا ما أعتقد، أم لعلك تريد أن تقول إنه مات ميتة طبيعية وهو نائم؟ لقد كان يتمتع بكامل الصحة حين رأيته للمرة الأخيرة؛ لذا فأنا أستبعد فكرة الموت الطبيعي.

- أنت على حق؛ فالسيد راتشيت مات قتيلاً، ولكن يهمني أن أعرف لماذا غلبت عندك فكرة القتل على فكرة الموت، مع أنه ليس من الغرابة في شيء أن يموت الإنسان فجأة في الوقت الذي

يظنّ فيه الناس أنه يتمتع بكامل الصحة.

- يجب قبل كل شيء أن أعرف من أنتَ وما شأنك.

- أنا ممثّل شركات عربات النوم واسمي بوارو ومهنتي شرطي سري، فأصغ إليّ يا سيد ماكوين؛ فأنا مكلف من قبل شركة عربات النوم بأن أمثلها في التحقيق في هذه الجريمة، لذا أرجوك أن تصارحني بجميع معلوماتك عن القتل. والآن أخبرني، هل أنت من أقرباء السيد راتشيت؟

- لا، كنت سكرتيه فقط.

- ومتى التحقت بخدمته؟

- منذ عام تقريباً.

- أرجو أن تحدثني بإسهاب، كيف اتصلت به؟

- لقد قابلت السيد راتشيت أول مرة منذ عام، وكنت وقتئذ في إيران.

- وماذا كنت تفعل في إيران؟

- كنت قد رحلت إليها من نيويورك للعمل في إحدى شركات البترول، وأظن أنه لا يهملك أن تعرف تفاصيل التحاقى بخدمة الشركة المذكورة، بيد أن العمل في الشركة لم يلائمني، وتصادف أنني كنتُ أقيم في نفس الفندق الذي نزل به السيد راتشيت، وفي أحد الأيام قام بين راتشيت وسكرتيه الخاص شجار انتهى بأن طرد راتشيت سكرتيه، ثم عرض عليّ أن أعمل بهذه الوظيفة في خدمته بمرتب لا بأس به فقبلت بغير تردد، ومنذ ذلك الوقت ونحن نطوف حول العالم وننتقل من بلد إلى آخر، وبالمناسبة،

لقد قال لي راتشيت إنه مولع بالسياحة.

- وماذا تعرف عن راتشيت؟

- لا أستطيع أن أزعم أنني أعرف عنه شيئاً يُذكر.

- ما اسمه؟

- صموئيل إدوارد راتشيت.

- أمريكي؟

- نعم.

- من أيّ مكان في أمريكا؟

- لا أعلم، والحقيقة يا سيد بوارو أنني لا أعرف عنه شيئاً يستحق الذكر لأنه لم يحدثني قط عن نفسه ولا عن حياته في أمريكا.

- ما رأيك فيه؟

- لا أعلم، ولكنني أعتقد أنه كان يخجل من ماضيه كأكثر العصاميّين الذين ظهروا من بين الترحال وجمعوا ثروة كبيرة.

- هل له أقارب؟

- لم يذكر لي أبداً أن له أقارب.

فنظر إليه بوارو بحدة ثم قال: ولكن يجب أن يكون لك رأيك الخاصّ في الرجل الذي عاشته ورافقته عاماً أو بعض عام، فما رأيك فيه؟

- أعتقد أن راتشيت ليس اسمه الحقيقي، وأنه ترك أمريكا

نهائياً فراراً من شخص أو أشخاص ، وأنه كان موفقاً في فراره إلى ما قبل بضعة أسابيع .

- ثم ماذا؟

- ثم بدأت تردُّ إليه بعض رسائل التهديد .

- هل قرأت هذه الرسائل ؟

- طبعاً ؛ فقد كانت قراءة الرسائل والرد عليها من عملي .

- متى وردت إليه أول رسالة ؟

- منذ أسبوعين تقريباً .

- وهل أعدمت هذه الرسائل ؟

- لا ، مازلت أحتفظ برسالتين منها ، أما الرسالة الثالثة فقد مزقتها السيد راتشيت في ثورة غضب .

- أكون شاكراً لو تفضلت بإحضار ما عندك .

فغادر ماكوين الغرفة ، ثم عاد بعد بضع دقائق وبين يديه ورقتان صغيرتان ، فتناولهما بوارو وقرأ في إحداهما هذه الكلمات : «هل حسبت أنك تستطيع الإفلات ؟ لقد أخطأت يا راتشيت فأيدينا لا بد أن تصل إليك» ، وكانت الرسالة خالية من التوقيع فوضعها بوارو جانباً ثم قرأ الرسالة الثانية : «سنصل إليك قريباً يا راتشيت ، وسترى» . فقال بوارو : أسلوب الرسالتين متشابه ، أما الخط فمختلف .

نظر إليه ماكوين بدهشة فقال بوارو وهو يتسم : ليس مثلك من يستطيع ملاحظة الفرق بين خط الرسالتين ، إذ يجب أن يكون

الإنسان عليمًا بهذه الشؤون ليتبين له هذا الفرق. اليد التي كتبت الرسالة الأولى لم تكتب الثانية، بل أستطيع أن أؤكد أن الرسالة الثانية كتبها أكثر من شخص، بمعنى أن كل شخص كان يكتب حرفاً ويترك للثاني كتابة الحرف الذي يليه، وهذا مما يزيد المسألة تعقيداً. لكن هل تعلم أن السيد راتشيت جاءني في أحد الأيام يلتمس معونتي؟

- جاءك يلتمس منك المعونة؟! -

ورأى بوارو على وجه الفتى من علامات الدهشة الحقيقية ما أقنعه بأنه لم يكن يعرف حقاً، فقال: نعم. لقد جاءني في أحد الأيام فأنبأني بأنه يخشى على حياته، ولكن أخبرني، ماذا كان يفعل كلما جاءته رسالة تهديد من هذا النوع؟

- من الصعب أن أصف حركاته، فقد كان يقرأ الرسالة ثم يلقي بها وهو يضحك بهدوء، لكنه كان في الواقع يُظهر غير ما يظن لأنني لاحظت في بعض الأحيان أنه كان يرتجف وهو يقرأ الرسالة.

فأطرق بوارو برأسه ثم فاجأ الشاب بهذا السؤال: أخبرني بصراحة يا سيد ماكوين، كيف كنتَ تنظر إلى مخدومك؟ وهل كنتَ تحبه؟

ففكر ماكوين ملياً، ومرت دقيقة أو دقيقتان قبل أن يتكلم ثم قال: لا، لم أكن أحبه.

- لماذا؟ -

- لا أستطيع أن أقول لماذا بالضبط، لأنه كان في الواقع دمث الخلق.

وصمت ثم عاد فأردف: سأحدثك بصراحة يا سيد بوارو. أنا لم أكن أحبه ولم أكن اطمئن إليه، وذلك كان شعوري الطبيعي نحوه، وإن كنت لا أستطيع أن أذكر السبب.

- شكراً لك يا سيد ماكوين، ولكن عذراً فلديّ سؤال آخر. متى رأيت السيد راتشيت لآخر مرة؟

- أمس، في نحو الساعة... نحو الساعة العاشرة على ما أظن، وكنت وقتئذ قد ذهبتُ إلى غرفته لأسجل بعض رغباته في يومياته.

- رغباته فيما يختص بماذا؟

- فيما يختص بأوانٍ خزفية أثرية كان قد ابتاعها في إيران، وقد دارت حولها مراسلات طويلة.

- هل تذكر متى تسلم السيد راتشيت آخر رسائل التهديد؟

- في صباح اليوم التالي لمغادرتنا إسطنبول.

- لعلك تفضل يا سيد ماكوين فتخبرني عن اسمك وعنوان بيتك في أمريكا.

- هكتور ويلار ماكوين...

ثم ذكر عنوانه في نيويورك فقال بوارو: هذا كل ما أريده منك الآن يا سيد ماكوين، ولكن أرجو أن تبقي أمر الجريمة سراً.

- لا بد أن يكون خادمه الخاص ماسترمان قد علم ما حدث.

- ربما، وإذا كان قد علم فأرجو أن تأمره بأن يلتزم الصمت

والكتمان.

- هذا أمر يسير ؛ فالرجل إنكليزي كتوم.

- شكراً لك.

وعندما غادر الشاب المركبة التفت السيد بوك إلى بوارو قائلاً: ما رأيك؟ هل تعتقد أنه قال الصدق؟

- أعتقد ذلك ؛ فكل حركاته تدل على الأمانة والاستقامة ، فعلى سبيل المثال هو لم يزعم أنه يحب القتل ، ولو كانت له يد في الجريمة لكان قد زعم أنه يحبه ، وفضلاً عن ذلك أظن أن السيد راتشيت كان رجلاً كتوماً يعرف كيف يحتفظ بأسراره لنفسه.

- إذن تستطيع أن تقول عن هذا الفتى إنه بريء ، أو بمعنى آخر تستطيع أن تقول إن بيننا واحداً على الأقل بريئاً من دم السيد راتشيت.

فنظر بوارو إليه طويلاً ثم قال: إذا أردت رأيي فاعلم أنني أرتاب في كل إنسان حتى آخر لحظة ، ومع ذلك فأنا لا أستطيع أن أتصور كيف يفقد هذا الفتى الوديع رشده ويطعن سيده اثنتي عشرة أو أربع عشرة طعنة ؛ فهذا عمل لا يصدر عن شاب مثله ، كما تدل الأدلة كلها على أنه صريح وحسن النية.

ثم تابع قائلاً: مثل هذه الجريمة لا يُقدم عليها غير رجل أعماه الغل والحقْد ، ولست أعرف من الناس من يندفع وراء عاطفته فيمثل بعده هذا التمثيل البشع غير شخص من أصل لاتيني ، أو كما يقول ميشيل امرأة منحها الحقْد قوة الجبارة.

* * *

الفصل السابع

تبع بوارو الدكتور قسطنطين إلى المركبة التي وقعت الجريمة في داخلها، ففتح ملاحظ المركبة بابها بمفتاح كان معه ثم أفسح لهما الطريق فدخلا، ثم التفت بوارو إلى الطبيب فسأله: هل مَسَسْتُم شيئاً بالغرفة؟

- لا، وفضلاً عن ذلك حرصتُ على إبقاء الجثة في موضعها عندما دُعيتُ لفحصها.

فأطرق بوارو رأسه ثم أجال الطرف حوله، وكان أول ما شعر به شدة البرد، فأتجه بصره إلى النافذة فوجد أنها مفتوحة على مصراعيها، ففحصها عن كثب ثم قال: لقد أحسنتَ عندما أبقيتَ كل شيء على حاله، ولقد كنتَ على حق حين قلتَ إن القاتل لم يخرج من هذه النافذة، فأكبر الظن أنها فُتحت خَصيصاً للتضليل، لكن الثلج أفسد حيلة القاتل.

ثم نظر إلى جوانب النافذة بحدة ثم أخرج من جيبه علبة بها مسحوق أبيض فألقى بعضاً منه على إطار النافذة ثم قال: لا يوجد أي أثر لبصمات الأصابع، ومعنى هذا أن القاتل فتح النافذة ثم أزال آثار أصابعه، فضلاً عن أن وجود البصمات لم يكن ليرشدنا في مهمتنا؛ فقد اتضح في آخر الأمر أنها بصمات أصابع راتشيت

أو بعض الخدم، أضف إلى ذلك أن المجرمين العصريين على جانب عظيم من الحرص وقل أن يوجد بينهم من يترك بصمات أصابعه الآن.

ثم أردف بعد لحظة: ومتى تقرر هذا فأرى أنه من الأفضل إغلاق النافذة؛ فالبرد لا يُحتمل.

وقد قرن القول بالفعل، ثم حوّل بصره إلى الجثة فنظر إليها لأول مرة. كان راتشيت ملقى على ظهره وقد تلوثت منامته ببقع كبيرة من الدم، فقال الطبيب: كان لا بد أن أعرف طبيعة الجروح لذا فتحتُ أزرار المنامة كما ترى.

فأطرق بوارو رأسه يفكر ثم انحنى فوق الجثة قائلاً: هذه جريمة بشعة، ولا ريب أن القاتل وقف في هذا المكان وراح يطعنه المرة تلو الأخرى. كم عدد الجروح؟

- اثنا عشر جرحاً، بينها ثلاثة على الأقل كل منها كان كافياً للقضاء عليه ولكن...

- ولكن ماذا؟

فقال الطبيب بشيء من الحيرة: انظر إلى هذين الجرحين.

ثم أردف قائلاً: إنهما عميقان، وكل منهما لا بد أنه قد مزق عدداً كبيراً من الشرايين، ومع ذلك فلست أرى حولهما شيئاً من الدم!

- وما معنى هذا؟

- معنى هذا أن الرجل قد طعن بعد أن مات!

وصمت الطبيب برهة ثم عاد فاستطرد: وهذا أيضاً غريب.

- ماذا هناك أيضاً؟

- هذا الجرح الذي تحت الساعد الأيمن على مقربة من الكتف الأيمن. خذ قلمي هذا وافترض أنه خنجر ثم جرّب هل تستطيع أن تحدّث به مثل هذا الجرح.

فتناول بوارو القلم ثم رفعه في قبضته وتخليل الطعنة التي تُحدّث مثل ذلك الجرح ثم قال: هذا صحيح؛ فمن الصعب جداً إحداث مثل هذا الجرح، بل إن من المستحيل إحداثه باليد اليمنى ما لم يدفع الإنسان الخنجر بيده من الأمام إلى الخلف لا من الخلف إلى الأمام كما هي العادة عند ارتكاب مثل هذه الجرائم. إذن من المؤكد أن المجرم استعمل اليد اليسرى حين طعن الطعنة التي أحدثت هذا الجرح.

فأجاب الطبيب بشيء من الحيرة: هل تريد أن تقول إن القاتل أعسر يستعمل يده اليسرى دون اليمنى؟

- من الصعب إثبات ذلك.

ثم سأل فجأة: هل كان المصباح الكهربائي مضاء عندما دخلت هذه الغرفة بعد ارتكاب الجريمة؟

- لا، وليس من السهل معرفة الحقيقة لأن الخدم يطفئون جميع المصابيح من الخارج في صباح كل يوم.

فقال بوارو: نستطيع أن نتحقق من هذه النقطة.

ثم أخذ يفحص الأضرار الكهربائية، وكان بالغرفة زّران:

أحدهما بجانب الفراش والآخر بجوار الباب، وقد وجد بوارو أن أحد الزرَّين فقط في حالة تسمح بإضاءة الغرفة إذا لم يكن الخدم قد قطعوا التيار الكهربائي من الخارج، كما اعتادوا أن يفعلوا في صباح كل يوم، ثم قال: إذا اتفقنا على أن الجريمة ارتكبتها شخصان، فأنا أستطيع أن أحدد ما فعله كل منهما. لقد دخل المجرم الأول الغرفة فطعن راتشيت، ثم أطفأ النور الكهربائي وانصرف، ثم جاء المجرم الثاني بعد ذلك فوجد الغرفة مظلمة، فتلمس طريقه فيها حتى وقع على راتشيت وهو ميت فطعنه طعنتين على الأقل أحدثتا هذين الجرحين غير الداميين. ما قولك في هذا التفسير؟

- معقول، معقول جداً.

- هل توافق على هذه النظرية؟

- بل أؤكد أنها صحيحة من كل الوجوه لأنها توضح جميع الظواهر الغامضة التي وقعتُ عليها في أثناء فحص الجثة.

- هل لك رأي آخر أم أنك مثلي تظن أن شخصين أرادا الفتك براتشيت فسبق أحدهما الآخر؟

- نعم، أظن ذلك، لا سيما أن بعض الطعنات تدل على أن اليد التي طعنتها هي يد شخص ضعيف البنية متردد غير واثق من نفسه، أما اليد التي أحدثت هاتين الطعنتين (وأشار بإصبعه إلى إصابتين بالغتين) فهي يد قوية لأن الطعنة مزقت العضلات.

- هل تظن أن هذه اليد القوية هي يد رجل؟

- أظن ذلك.

- ألا يُحتمل أن تكون يد امرأة؟

- تستطيع المرأة إذا كانت في مقتبل العمر وقوية البنية وواقعة تحت تأثير انفعال قوي أن تطعن مثل هاتين الطعنتين، ولكنني أميل إلى الاعتقاد بأن أحد المجرمين على الأقل كان رجلاً.

فضحك بوارو في تهكم وقال: المسألة أصبحت غاية في البساطة؛ فالمجرم إما رجل ضعيف أو امرأة قوية أو الاثنين معاً.

ثم قطّب حاجبيه وقال: ولكن ألم يفعل القتل شيئاً؟ ألم يدافع عن نفسه؟ ألم يستغث؟

ثم وضع يده تحت وسادة راتشيت فتناول المسدس الذي كان قد رآه في يد هذا الأخير عندما عرض عليه أن يتولى حمايته، ثم فحص المسدس وقال على الفور: المسدس محشو، إذن فالقتيل لم يستخدمه.

وشرع الاثنان يجيلان النظر حولهما، فرأيا ثياب راتشيت موضوعة على أحد المقاعد وعلى مقربة منها طاولة صغيرة عليها أشياء نافهة، فقد رأى بوارو على هذه الطاولة كوباً به أسنان اصطناعية وبجانبه كوب آخر فارغ وزجاجة مياه معدنية وصينية صغيرة بها قطعة ورق محترقة، ثم وقع بصره في الصينية كذلك على عودَي ثقاب مستعملين.

تناول الطبيب الكوب الفارغ فقرّبه إلى أنفه ثم قال: الآن فهمت لماذا لم يدافع القتل عن نفسه.

- لماذا؟ هل وُضع له مخدّر في الكأس؟

- نعم.

فأطرق بوارو برأسه ثم تناول عودَي الثقاب وأخذ يفحصهما

عن كُثْب، فقال له الطيب بحدة: هل وقعتَ على دليل جديد؟
- هذان العودان يختلف كل منهما عن الآخر؛ فأحدهما
مسطَّح والثاني مستدير. انظر.

- هذا صحيح، ولكنهما من النوع الوحيد الذي يجده
المسافرون في القطارات عادة.

فجعل بوارو يفتش جيوب راتشيت حتى عثر على علبة
ثقاب، فأخذ منها عوداً فقارن بينه وبين العودين ثم قال: هذا
العود المستدير من علبة السيد راتشيت، والآن لنبحث في جيوبه
عما إذا كانت لديه علبة أخرى بها أعواد مسطَّحة.

ثم بحث لكنه لم يجد شيئاً، فهزَّ رأسه ودار بعينه في أنحاء
الغرفة، فرآه الطيب ينحني فجأة ليلتقط شيئاً. وكان ذلك الشيء
منديلاً صغيراً أنيقاً قد طُرِّزَ على أحد جوانبه الحرف «ه»، فهتف
الطبيب: هذا منديل سيدة. لقد كان ميشيل على حق حين قال إن
للمرأة إصبعاً في الجريمة.

- من المدهش أن تترك هذه المرأة دليلاً ساطعاً كهذا
المنديل، الأمر الذي لا يحدث عادة إلا في القصص الخيالية أو
الأفلام السينمائية، وأبدع شيء أن الحرف الأول من الاسم أو
اللقب على أحد أطراف المنديل.

ثم انحنى مرة أخرى فتناول شيئاً، فاشربأب عنق الطيب فرأى
في يد بوارو فرشاة صغيرة كالتي تُستعمل في تنظيف الغليون فقال:
ربما كانت فرشاة راتشيت نفسه.

- لا أظن ذلك لأنني لم أعثر في جيوبه على غليون أو تبغ.

- إذن هذا أثر جديد.

- بغير شك، وليس لي أن أشكو قلة الآثار والأدلة في هذه القضية، ولكن بالمناسبة، ماذا فعلت بالسكين أو الخنجر الذي ارتكبت به الجريمة؟

- أنا لم أجد أثراً لأي سلاح قاطع، وأكبر الظن أن القاتل حمل سلاحه معه.

وشرع الطبيب في معاونة بوارو على البحث، فوضع يده في جيب منامة القتل فأخرج ساعة ذهبية، ثم نظر إليها وقد تهلل وجهه صائحاً: انظر. لقد تعطلت الساعة على أثر طعنة أصابتها، وها هي العقارب تدل على أن الجريمة حدثت في الساعة الواحدة والربع صباحاً.

فقال بوارو بقلّة اكتراث: هذا جائز.

وكان ينظر بحدة إلى الصحيفة التي وجد بها عودَي الثقاب، فقد كانت توجد بجانب هذين العودين قصاصة ورق صغيرة محترقة فغمغم: أنا طوال حياتي العملية لم أعلق أبداً أية أهمية على رماد لفافات التبغ وبصمات الأصابع وغير ذلك من الأشياء التي تحتل المكانة الأولى من اهتمام المحققين العصريين الذين يستعينون بالنظريات العلمية والتصوير الفوتوغرافي والتحليل الكيميائي لإمالة اللثام عن الجرائم الغامضة، ولكنني أتمنى لو أجد الآن أية معونة علمية في التحقيق في هذه الجريمة.

ثم قال بوارو: انظر، هذا المكان مليء بالآثار والأدلة، ولكن من يؤكد لي أنها آثار حقيقية وليست مفتعلة، وسأضرب لك مثلاً. لقد وجدنا هنا منديل امرأة، ولكن هل تركت إحدى النساء هذا

المنديل حقيقة، أم أن رجلاً ارتكب الجريمة وقال لنفسه: سأضلّل المحققين وأجعلهم يظنون أن المجرم امرأة، فأطعن فريستي بضع طعنات ثم أترك هذا المنديل هنا؟

فنظر إليه الطبيب بدهشة ثم قال: لا أستطيع أن أفهمك يا سيد بوارو.

- ويُحتمل كذلك أن يكون القاتل امرأة وأن تكون هذه المرأة قد حدّثت نفسها بمثل ما حدّث به الرجل الأنف الذكر نفسه «فأطعن فريستي بضع طعنات»، ثم تترك فرشاة الغليون بقصد التمويه والتضليل، ويُحتمل غير هذا وذاك أن يكون شخصان، أحدهما رجل والآخر امرأة، قد اشتركا في الجريمة ونسي كل منهما هذا الأثر خلفه.

- وماذا فهمت من وجود عودَي الثقاب؟

- آه، ويُحتمل أن تكون جميع الأدلة التي وجدناها هنا زائفة أو مصطنعة، أما دليل هذين العودين فأرجّح أنه أصدق وأهم الأدلة جميعاً؛ فأنا أظن أن راتشيت لم يستخدم هذا العود المسطح، وأن الذي استخدمه هو قاتل راتشيت، وقد استخدمه لإحراق قصاصة ورق ربما كانت تتضمن معلومات ترشد إليه، وبقيت هذه القصاصة المحترقة موجودة بين أيدينا في هذه الصينية التي وجدنا بها عودَي الثقاب، وسأحاول أن أعرف أية كتابة كانت تتضمن هذه القصاصة.

قال ذلك، ثم غادر المكان فغاب بضع دقائق، ثم عاد حاملاً لوحاً لامعة من المعدن وعدة أسلاك وموقداً صغيراً يضاء بالكحول، وأخذ الطبيب يرقبه باهتمام، فرآه يستعين بالأسلاك

الصغيرة لنقل قصاصة الورق المحترقة إلى اللوحة المعدنية، ثم رآه يشعل الموقد ويضع فوقه تلك اللوحة، فأخذت القصاصة المحترقة تتحرك ببطء فوق اللوحة المعدنية إلى أن توهجت اللوحة وتوهجت معها القصاصة، وعندئذ قرأ الرجلان في القصاصة الكلمات التالية التي برزت واضحة جلية كأنها كُتبت بحروف من نار: «ديزي أرمسترونغ الصغيرة»، فهتف بوارو بحدة: آه!

- هل فهمتَ شيئاً؟

فلمعت عينا بوارو ثم أجاب: نعم، علمتُ الآن من هو القاتل وما اسمه الحقيقي ولماذا هرب من أمريكا.

- ما اسمه؟

- كاسيتي.

- كاسيتي؟ لقد قرأتُ شيئاً عن صاحب هذا الاسم منذ عدة أعوام، ولكنني لا أذكر في أية مناسبة، ويُحتمل أن يكون قد ورد في قضية مشهورة في أمريكا، أليس كذلك؟

- بلى.

لكنه لم يزد، وأخذ يفحص بعينه جوانب المكان ثم قال: سوف نتكلم في هذا، أما الآن فيجب أن نتأكد من أننا لم ننسَ شيئاً.

ثم أخذ يفتش جيوب القاتل مرة أخرى ولكنه لم يجد شيئاً، ثم اتجه إلى الباب الموصّل بين غرفة القاتل والغرفة المجاورة فوجده مغلقاً من الجانب الآخر. قال الدكتور قسطنطين: يوجد شيء لا أستطيع أن أفهمه، وهو إذا كان المجرم لم يهرب من

النافذة، وإذا كان الباب المتوسط مغلقاً من الجانب الآخر وباب الغرفة المؤدي إلى ممّر العربّة مغلقاً بالمزلاج من الداخل فكيف استطاع المجرم أن يغادر الغرفة؟!

- هذا عين السؤال الذي يتردد على ألسنة الناس حين يشهدون مشعوذاً يوضع في صندوق ويُلقى في اليمّ، ثم يرونه يخرج من الماء والصندوق لا يزال مغلقاً كما هو.

- لا أفهم ماذا تريد أن تقول.

- أريد أن أقول إن المجرم إذا كان قد أراد أن يوهمنا بأنه فرّ من النافذة، فلا ريب أن يكون قد تأكد سلفاً من أن المنفذين الآخرين، وأعني الباب المتوسط والباب الخارجي، في حالة تدعو إلى الثقة بأنه لم يخرج من أحدهما، فهو كالمشعوذ الذي يهيمه قبل كل شيء أن يوهم النظارة بأن الصندوق غير قابل للفتح، ومهمتنا نحن في هذه الحالة هي أن نكشف حيلة المجرم.

ثم أوصد الباب المتوسط بالمزلاج قائلاً: تشغل الغرفة المجاورة سيدة ثرثرة تُدعى السيدة هوبار، وأخشى متى وصل إليها نبأ الجريمة أن تفتح هذا الباب من ناحيتها لتعرف المزيد من أمر الجريمة. والآن أظن أنه لم يبق لنا ما نفعله هنا، فهلم بنا إلى غرفة السيد بوك.

* * *

الفصل الثامن

كان بوك قد فرغ لتوّه من تناول طعام الإفطار، ثم قال محدثاً
بوارو وعلى شفّتيه ابتسامة: لقد فكرتُ في أن نتناول فطورنا هنا
قبل إخلاء قاعة الطعام لتباشر فيها التحقيق وسماع الشهود، لذا
طلبتُ لكما طعاماً.

فأجاب بوارو: لقد أحسنتَ صنعاً.

ولم يكن الرجلان يشعران بقابلية إلى الطعام فأكلا قليلاً،
وعندما جيء بأقداح القهوة عاد السيد بوك إلى الموضوع الذي
يشغل باله أكثر من أي موضوع آخر، فسأل بوارو: هل وُفِّقَت
في مهمتك؟

- لقد عرفتُ شخصية القاتل وعرفت لماذا اضطرّ إلى مغادرة
أمريكا.

- ومن هو؟

- هل تذكر أنك قرأت شيئاً عن طفلة تُدعى ديزي آرمسترونغ
خُطفت من أهلها وقُتلت؟ القاتل هو كاسيتي الذي قتل تلك
الطفلة.

- نعم، نعم، أذكر أن قضية من هذا النوع هزّت أمريكا من

أقصاها إلى أقصاها، لكنني لا أذكر التفاصيل بالضبط.

- إذن فأصغ إليّ. كان يعيش في أمريكا شخص يُدعى الكولونيل آرسترونغ ينحدر من والد إنكليزي ووالدة أمريكية، وهي ابنة فاندرهولت المليونير الأمريكي المشهور، وقد تزوج الكولونيل بابنة ليندا آردن الممثلة الأمريكية ذائعة الصيت وعاش مع زوجته في أمريكا، ثم رزقا طفلة كانت موضع حبهما الشديد. وعندما بلغت هذه الطفلة (واسمها ديزي) الثالثة من عمرها خُطفت بطريقة غامضة وطلب الخاطفون مبلغاً ضخماً على سبيل الفدية. ولن أسهب في ذكر التفاصيل، فأذكر أن الكولونيل دفع الفدية وقدرها مئتا ألف دولار وهو يرجو أن تُردّ إليه ابنته العزيزة، لكن الخاطفين لم يرّدوا الطفلة، وعثرت الشرطة على جثتها في حالة تدل على أنها قتلت قبل دفع الفدية بأسبوعين على الأقل.

تنهّد بوارو وهو يتذكر ثم عاد يستطرد قائلاً: ولم تنته المأساة عند ذلك؛ فقد كانت زوجة الكولونيل حاملاً، لكن الصدمة أثّرت على صحتها فولدت طفلة ميتة، ثم ماتت هي الأخرى على الأثر، فحزن الكولونيل حزناً شديداً ثم أطلق على نفسه الرصاص فمات متحرراً، وقبضت الشرطة على مربية الطفلة، وهي فتاة فرنسية أو سويسرية (لا أذكر تماماً) لأن المحققين ارتابوا في أنها اشتركت في تدبير حادث الاختطاف، لكن المربية أنكرت أن لها أية صلة بالمجرمين، فلم يقتنع المحققون بإنكارها وألقوا بها في السجن حيث عوملت معاملة أثّرت على أعصابها، فانتهزت إحدى الفرص وألقت بنفسها من نافذة غرفة المحقق فماتت في الحال، ثم ثبت فيما بعد أنها كانت بريئة من تهمة الاشتراك في هذه الجريمة.

- وماذا عن كاسيتي؟

- أُلقي القبض عليه بعد ستة أشهر، فقد ثبت أنه رئيس العصابة التي اختطفت ديزي آرمسترونغ وقتلتها، كما سبق لها أن اختطفت غيرها من أولاد الأغنياء طمعاً في الفدية. لم يكن ثمة شك في أن كاسيتي كان هو المسؤول عن هذه الجريمة المروعة التي ترتبت عليها الفواجع التي ذكرتها، ولكن الرجل كان يملك ثروة طائلة، وكانت له صلات بكثيرين من ذوي النفوذ، بل ويقال إنه كان يعرف أسراراً خطيرة تمس القائمين على الحكم، وكانت نتيجة هذا كله أن ذوي السلطان ساعدوه على الإفلات والخلاص. كان كاسيتي رجلاً بعيد النظر؛ فقد عجل بالهرب من الولايات المتحدة الأمريكية قبل أن يقتله الجمهور بعد إطلاق سراحه، وساعدته السلطات على فراره، فانتحل شخصية جديدة وأسمى نفسه راتشيت، ثم راح يقضي حياته متنقلاً في أنحاء العالم معتمداً على ريع أمواله الطائلة التي جمعها من جرائمه الكثيرة.

ثم صمت بوارو فهتف بوك: يا له من حيوان! أنا غير آسف لموته، لكن كان يهمني فقط ألا يُقتل في قطار الشرق أو في إحدى عربات النوم، فالعالم فسيح. كم كان يسرني لو أنه لقي مصرعه في مكان آخر.

فابتسم بوارو ثم أردف: المسألة الآن هي: هل قتل كاسيتي بيد عصابة أمريكية أخرى تنقم عليه لأنه قاومها أو أفسد بعض مساعيها، أم قتل بيد واحد من أسرة آرمسترونغ انتقاماً للطفلة المسكينة وذويها؟

ثم حدث السيد بوك باختصار عن قصاصة الورق المحترقة ومضمونها ثم استطرد: وأنا أعتقد أن القصاصة قد أحرقت بيد القاتل. لماذا؟ لأنها تضمنت اسم آرمسترونغ، وهذا الاسم يكفي

في ذاته لإمّاطة اللثام عن أهم أسرار الجريمة.

- ألا يزال بعض أفراد أسرة آرمسترونغ على قيد الحياة؟

- هذا ما لا أعرفه لسوء الحظ ، لكنني أظن أنني قرأت في أحد الأيام عن أخت لزوجّة الكولونيل آرمسترونغ.

* * *

الفصل التاسع

أُخليت مركبة الطعام وأُعدّت بها طاولة لجلوس بوارو والسيد بوك والطبيب، ثم شرع بوارو في التحقيق في الجريمة فقال محدّثاً السيد بوك: أظن أننا يجب أن نبدأ بسؤال ميشيل ملاحظ مركبة النوم؛ فهو آخر من رأى راتشيت على قيد الحياة. هل تثق بهذا الرجل يا سيد بوك؟ لا بد أنك تعرف عنه شيئاً.

- نعم، هو شخص موثوق به، فقد أمضى في خدمة الشركة خمسة عشر عاماً، وهو فرنسي الجنسية ومحترم وأمين، لكنه ليس معروفاً بالفطنة والذكاء.

أقبل بيير ميشيل الذي كان قد ملك نفسه واستعاد رباطة جأشه، فأخذ يجيب على أسئلة بوارو، فذكر اسمه وعنوانه والمدة التي قضاها في خدمة قطار الشرق، ثم قال بوارو: لتتحدث الآن عن جريمة الأمس. هل تذكر متى عاد راتشيت إلى غرفته؟

- لقد عاد إلى غرفته بعد طعام العشاء مباشرة، أعني قبل أن يغادر القطار محطة بلغراد.

- هل اجتمع به أحد في غرفته بعد أن دخل إليها؟

- نعم، فقد اجتمع به خادمه وسكرتيه الخاص.

- فقط؟
- هذا ما أظنه.
- ومتى رأيته لآخر مرة؟
- كل ما أعلمه أنه قرع الجرس في الساعة الواحدة وعشرين دقيقة، فذهبتُ إلى غرفته وقرعتُ بابها، غير أنه أجابني بأنه ليس بحاجة إليّ وأنه قرع الجرس خطأ.
- هل ذكر ذلك بالإنكليزية أم الفرنسية؟
- بالفرنسية.
- ماذا قال حرفياً؟
- قال: لا شيء. لقد أخطأت.
- صدقتَ؛ فأنا سمعته يقول ذلك، وهل انصرفت بعدئذ؟
- نعم يا سيدي.
- لي سؤال آخر يا ميشيل، لكنه على جانب عظيم من الأهمية. أين كنتَ قُبِلَ الساعة الواحدة بعد منتصف الليل؟
- كنتُ جالساً على المقعد الخاص بي في نهاية رواق المركبة.
- هل أنت واثق؟
- نعم، ثم انتقلت فقط في الساعة الواحدة أو بعدها بدقائق إلى المركبة التالية المعروفة بمركبة أثينا لكي أتحدث مع أحد زملائي، وقد دار الحديث بيننا حول كثرة الجليد.

- ومتى عدتَ إلى مركبتك؟
- عندما سمعتُ جرساً يدقّ.
- ومن الذي دقّ الجرس؟
- السيدة الأمريكية الثرثارة، وبعد ذلك قرعت أنت الجرس فأتيتُ إلى غرفتك وحدثتك عن السيدة الأمريكية، ثم جئتُك بزجاجة مياه، ثم انطلقت لإعداد فراش شاب أمريكي هو السيد ماكوين سكرتير راتشيت.
- وهل كان ماكوين وحده عندما ذهبتَ لإعداد فراشه؟
- لا، بل كان معه الكولونيل الإنكليزي الذي يقيم بالغرفة رقم ١٥، وكان الاثنان يتحدثان.
- وماذا فعل الكولونيل بعد أن غادر غرفة ماكوين؟
- ذهب إلى غرفته.
- رقم ١٥، الغرفة المجاورة لمقعدك في نهاية الرواق، أليس كذلك؟ وكنتَ قد أعددتَ فراشه طبعاً.
- بلى، وقد أعددتُ فراشه حين كان يتناول طعام العشاء.
- كم كانت الساعة وقتئذٍ؟
- لا أذكر بالضبط، ولكن الساعة لم تكن تتجاوز الثانية بعد منتصف الليل.
- ألم تذهب مرة أخرى إلى مركبة أثينا؟
- لا يا سيدي.

- أَلَمْ يَسْتَوِلْ عَلَيْكَ النُّومُ؟
- لَا يَا سَيِّدِي، فَقَدْ كَانَ الْقِطَارُ مَعْطَلًا، وَأَنَا فِي مِثْلِ هَذِهِ
الْحَالَةِ لَا أَنَامُ.

- هَلْ رَأَيْتَ أَحَدَ الْمَسَافِرِينَ يَسِيرُ فِي رَوَاقِ الْمَرْكَبَةِ؟
فَفَكَّرَ لِحِظَةٍ ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُ إِحْدَى السِّدَاتِ ذَاهِبَةً إِلَى
الْحَمَامِ.

- وَمَنْ هَذِهِ السَّيِّدَةُ؟
- لَا أَدْرِي يَا سَيِّدِي؛ فَقَدْ رَأَيْتَهَا وَهِيَ فِي نِهَآيَةِ الرِّوَاقِ وَلَمْ
يَقَعْ نَظْرِي عَلَى وَجْهِهَا، وَلَكِنْ أَذْكَرُ أَنَّهَا كَانَتْ تَرْتَدِي وَشَاحًا أَحْمَرَ
الْوَلَوْنَ قَدْ طَرَزَ عَلَيْهِ شَكْلَ تَنِينٍ.

فَأَطْرَقَ بَوَارُو بِرَأْسِهِ وَفَكَّرَ ثُمَّ سَأَلَ: وَمَاذَا حَدَثَ بَعْدُ؟
- لَا شَيْءَ يَا سَيِّدِي، فَقَدْ سَادَ الْهُدُوءُ حَتَّى الصَّبَاحِ.
- هَلْ أَنْتَ وَاثِقٌ؟
- كُلُّ مَا حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّكَ فَتَحْتَ غُرْفَتَكَ بِنَفْسِكَ وَوَقَفْتَ
بِبَابِهَا لِحِظَةٍ.

- مَعَكَ حَقٌّ يَا صَدِيقِي، لَقَدْ كُنْتُ أَخْشَى أَلَّا تَذْكُرَ هَذِهِ
التَّفْصِيلَاتِ الدَّقِيقَةَ. وَبِالْمُنَاسَبَةِ، أَذْكَرُ أَنَّني اسْتَيْقِظْتُ فِي ذَلِكَ
الْوَقْتِ عَلَى صَوْتِ سَقُوطِ شَيْءٍ ثَقِيلٍ أَمَامَ بَابِ غُرْفَتِي، فَهَلْ لَدَيْكَ
فِكْرَةٌ عَنِ مَا هِيَ هَذَا الشَّيْءُ؟

فَحَمَلَقَ الرَّجُلُ إِلَى وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ: لَا يَا سَيِّدِي.
فَهَزَّ بَوَارُو رَأْسَهُ وَقَالَ: رُبَّمَا كُنْتُ وَاقِعًا تَحْتَ تَأْثِيرِ كَابُوسٍ.

فقال السيد بوك: أو ربما سقط ذلك الشيء على باب الغرفة المجاورة.

فتظاهر بوارو بعدم الاكتراث لهذه الفكرة وقال: لنترك هذه المسألة، ولنفترض أن القاتل ركب القطار في الليلة الماضية، فهل من المؤكد أنه لم يكن بوسعه مغادرة القطار بعد ارتكاب الجريمة؟

- نعم يا سيدي، لم يكن يستطيع ذلك.

- ألم يكن بوسعه كذلك أن يختفي في مكان ما بالقطار؟

فقال السيد بوك: دع هذه الفكرة يا صديقي؛ لقد فتشنا القطار جيداً.

وقال ميشيل: وفضلاً عن ذلك أنه لا يمكن لإنسان أن يدخل إلى عربة النوم دون أن نراه.

- وما آخر محطة وقف بها القطار؟

- محطة فنكوفكي.

- وكم كانت الساعة؟

- كان يجب أن يغادر القطار هذه المحطة في الساعة ١١ والدقيقة ٥٨، ولكننا تأخرنا دقيقتين نظراً لسوء حالة الجو.

- ألا يُحتمل أن يكون أحد المسافرين العاديين استطاع أن ينفذ إلى مركبات النوم؟

- لا يا سيدي، فقد جرت العادة أن نغلق الباب الموصل بين مركبات النوم والمركبات العادية بمجرد الفراغ من تناول العشاء.

- هل غادرتَ القطار في محطة فنكوفكي؟
- نعم يا سيدي ، غادرتُ القطار ووقفت على رصيف المحطة
كالمعتاد إلى أن تحرك القطار ، وقد فعل الموظفون الآخرون مثل
ذلك.

- وماذا تعلم عن الباب القريب من مركبة الطعام؟

- هو مغلق من الداخل دائماً.

- لكنه ليس مغلقاً الآن.

فظهرت على وجه الرجل علامات الدهشة ثم برقت عيناه
فجأة وأجاب: لا شك أن أحد المسافرين فتحه ليirmi نظرة على
الثلوج في الخارج.

- قلتَ لي إن جرساً آخر دُقَّ في ذلك الوقت الذي كنتَ تفرع
فيه باب غرفة راتشيت ، والواقع أيضاً أنني سمعت ذلك الجرس ،
فمن الذي قرعه؟

- الأميرة دراغومиров ، وكانت تريد أن أدعو لها
وصيفتها.

- وهل دعوتَ وصيفتها؟

- نعم يا سيدي.

فألقي بوارو نظرة سريعة على الرسم الذي أمامه ، والذي يبيّن
أقسام غرفة النوم ثم قال: هذا كل ما أريده منك الآن.
- شكراً لك يا سيدي.

* * *

الفصل العاشر

استغرق بوارو في التفكير دقيقة أو دقيقتين ثم قال: أرى أنه من الأفضل أن أسمع السيد ماكوين مرة أخرى وأحقق معه على ضوء ما لدينا من المعلومات.

ثم جيء بالسيد ماكوين سكرتير راتشيت في الحال ففاجأه بوارو قائلاً: لقد علمتُ حقيقة السيد راتشيت.

- حقاً؟!

وظهرت على وجه الفتى علامات الاهتمام فقال بوارو: نعم علمتُ ما كنتَ تتوقعه أنت من أن راتشيت هو اسمُ مستعار للرجل الذي كنتَ في خدمته، أما اسمه الأصلي فهو كاسيتي، وهو الرجل الذي ارتكب طائفة من حوادث خطف الأطفال ولعب دوراً خطيراً في حادث اختطاف ديزي آرمسترونغ.

فدهش ماكوين ثم توجههم وجهه وهتف: ويل لهذا النذل!

- أظن أنك لم تعلم هذه الحقيقة.

- طبعاً، طبعاً، فلو كنتُ أعلم لما التحقتُ بخدمته مهما كان الأجر.

- ولماذا كل هذه الحماسة ضده يا سيد ماكوين؟

- أولاً يجب أن تعلم أن والدي هو الذي قام بتحقيق حادث اختطاف ديزي آرمسترونغ، وقد رأيت السيدة آرمسترونغ مراراً فاثّر عليّ حزنها أبلغ تأثير. ثم تجهم وجهه وتابع: هذا النذل يستحق أكثر مما أصابه، وأنا مسرور لأنه لقي مصرعه بهذه الطريقة البشعة فرجل مثله لا يستحق أن يعيش.

- يُخيل إليّ من حديثك وحماسك أنك ما كنت لتتردد عن الفتك به لو أنك عرفتَ حقيقته.

- هذا صحيح، فلو...

ثم كفّ عن الكلام وقد احمرّ وجهه وكأنه شعر بخطورة هذه التصريح، ثم أردف بعد لحظة: أعلم أن كلامي هذا مريب، ولكنني لا أستطيع أن أكتم شعوري.

- كنتُ سأرتاب فيك يا سيد ماكوين لو أنك تظاهرت بالحزن، أما وأنتك قد عبّرت عن شعورك الطبيعي بمثل هذه الحماسة فذلك مما يؤيد حسن نيتك.

- أؤكد لك أن منظر المشنقة لا يمنعني من التعبير عن شعوري.

- مهمتي الآن هي أن أتأكد من تصرفات المسافرين جميعاً في ليلة الجريمة، لذا أرجو ألاّ تظن أنني أوجه إليك تهمة ما.

- طبعاً، سلني عمّا تريد؛ فأنا يهمني أن أثبت براءتي بصفة قاطعة.

- لستُ بحاجة لأن أسألك عن رقم غرفتك فقد شاطرتك
إياها ليلة، ولكنني أود أن أعرف كيف قضيتَ ليلتك أمس بعد أن
غادرتَ مركبة الطعام؟

- هذا أمر يسير للغاية، لقد عدتُ إلى غرفتي فأمضيت بعض
الوقت في القراءة، ثم سرت قليلاً على رصيف محطة بلغراد،
وعندما شعرت بشدة البرد عدت إلى المركبة، فقابلت فتاة إنكليزية
تقيم في الغرفة المجاورة لغرفتي فتحدثت معها قليلاً، ثم أمضيت
بعض الوقت في الحديث مع الكولونيل أربتنوت، وأذكر أنك
مررت بنا ونحن نتحدث.

ثم صمت قليلاً قبل أن يستطرد قائلاً: وبعد ذلك ذهبت
إلى غرفة السيد راتشيت كما سبق أن أخبرتك، فتلقيت أوامره
وتعليماته ثم تركته وانصرفت، وكان الكولونيل أربتنوت لا يزال
واقفاً في الرواق ينتظر أن يُعَدَّ الخادم فراشه، فاقترحت عليه
أن يدخل غرفتي، ثم طلبت كأسين من الشراب، وقد دار بيننا
حديث حول السياسة العالمية وشؤون الحكومة في الهند والأزمة
الاقتصادية في الولايات المتحدة الأمريكية، وأنا لا أميل عادة إلى
الإنكليز لتكبرهم لكن حديث هذا الرجل راقني فقضينا معاً فترة
من الوقت.

- هل تذكر متى غادر غرفتك؟

- في ساعة متأخرة، نحو الساعة الثانية صباحاً.

- هل كنتَ قد لاحظتَ أن القطار تعطل؟

- نعم، لاحظنا ذلك وتساءلنا عن السبب، ثم فتحنا النافذة
ورأينا أكوام الجليد.

- وماذا حدث بعد انصراف الكولونيل أربنتوت من غرفتك؟

- لقد انطلق إلى غرفته في الحال ، أما أنا فقد دعوتُ ملاحظ العربَة ليُعدّ لي فراشي.

- وأين كنتَ حين شرع الملاحظ في إعداد فراشك؟

- كنت واقفاً بالرواق أدخن لفافة تبغ.

- ثم ماذا؟

- ثم أويت إلى فراشي فاستغرقت في النوم حتى الصباح.

- هل غادرتَ القطار في ذلك المساء؟

- نعم ، كنت أتحدث مع الكولونيل أربنتوت حين وقف القطار في محطة... دعني أتذكر ، نعم ، في محطة فنكوفكي ، ثم تركت المركبة مع الكولونيل بقصد السير على رصيف المحطة ، ولكن البرد كان شديداً فعدنا في الحال.

- من أي باب غادرتَ المركبة؟

- من أقرب باب إلى غرفتي.

- أتعني الباب المجاور لمركبة الطعام؟

- نعم.

- وهل كان هذا الباب موصداً من الداخل؟ أتذكر ذلك؟

- فكّر ماكوين ثم أجاب: نعم ، أذكر أنه كان موصداً من الداخل.

- هل أوصدته عندما عدت؟

- لا، بل فاتني أن أوصده.

ثم أردف: هل لذلك أهمية؟

- ربما، والآن أخبرني، عندما كنت تتحدث إلى الكولونيل أربنتوت في غرفتك هل كان باب الغرفة مفتوحاً؟ أعني الباب المؤدي إلى الرواق.

فأطرق ماكوين برأسه علامة على الإيجاب فقال بوارو: أرجو أن تخبرني، هل رأيت أحداً يجتاز الرواق بعد أن غادر القطار محطة فنكوفكي؟ أعني منذ أن غادر القطار المحطة حتى انصرف الكولونيل من غرفتك.

فقطب ماكوين حاجبيه ثم أجاب: أظن أن ملاحظ العربة مرّ من أمامنا آتياً من جهة مركبة الطعام، وأن سيدة أخرى سارت في عكس الاتجاه.

- أية سيدة؟

- لا أعلم؛ فقد كنت مشغولاً بالحديث مع الكولونيل، ولكن أذكر أن السيدة كانت ترتدي وشاحاً أحمر اللون، ولكنني لم أستطع أن أتبين وجهها لأن غرفتي تقع في نهاية المركبة، ومجرد مرور السيدة لا يمكنني من رؤية وجهها.

فأطرق بوارو برأسه ثم قال: ربما كانت السيدة تقصد الذهاب إلى المغسل، أليس كذلك؟

- بلى، ربما.

- ولكن هل رأيتها في عودتها؟

- لا، لا أذكر أنني رأيتها في عودتها، ولكن لا بد أنها عادت على كل حال.

- سؤال أخير يا سيد ماكوين. هل تدخن؟

- لا يا سيدي.

- شكراً لك، هذا كل ما أردتُ معرفته في الوقت الحاضر. والآن أود مقابلة خادم السيد راتشيت، ولكن بالمناسبة، هل جرت العادة دائماً على أن تسافر أنت والخادم في مركبات الدرجة الثانية؟

- لا، الخادم يسافر بالدرجة الثانية دائماً، أما أنا فأسافر بالدرجة الأولى، ودائماً تكون غرفتي مجاورة لغرفة السيد راتشيت، لكن الذي حدث في هذه المرة أننا وجدنا جميع غرف الدرجة الأولى محجوزة عدا الغرفة التي قُتل فيها السيد راتشيت.

- أشكرك يا سيد ماكوين.

* * *

الفصل الحادي عشر

جيء بخادم السيد راتشيت، وهو رجل إنكليزي شاحب اللون كان بوارو قد رآه قبلاً، فأجاب على أسئلة بوارو بأن اسمه ماسترمان وعمره ٣٩ سنة وعنوانه ٢١ شارع فراير مدينة كلارنكنوبل، ثم سأله بوارو: هل علمت أن سيدك قتل؟

- نعم يا سيدي، وهذا حادث فظيع يؤسف له.

- هل تستطيع أن تخبرني متى رأيت السيد راتشيت لآخر مرة؟

- نحو الساعة التاسعة من مساء أمس.

- أخبرني بالتفصيل، ماذا حدث عندما اجتمعت به للمرة الأخيرة؟

- لقد ذهبتُ إلى غرفته لإعداد ما يلزمه، فرتبت ثيابه ووضعت أسنانه الاصطناعية في الماء، ثم أعددت ما يلزمه ليلاً.

- هل كان في حالته الطبيعية؟

فأجاب الخادم على الفور: لا، فقد كان في حالة غضب وانفعال.

- لماذا؟

- لا أدري ، ولكنه كان ممسكاً في يده برسالة أعتقد أنه قرأ بها ما أزعجه ، وقد سألني عما إذا كنتُ أنا الذي وضعت الرسالة على الطاولة ، فأجبتُه سلباً ، فغضب ووصفني بأنني مهمل لا أصلح للعمل.

- هل اعتاد أن يغضب بسرعة؟

- نعم ، إنه سريع الانفعال.

- هل تعلم عنه أنه كان يتعاطى شيئاً من العقاقير لمقاومة الأرق؟

وهنا أرهف الدكتور قسطنطين أذنيه ، في حين أجاب الخادم :
نعم ، كان يتعاطى نوعاً من العقاقير في أسفاره فقط ، وقد قال لي مرة إنه لا يستطيع النوم في القطار.

- هل تعرف أي نوع من العقاقير كان يتعاطى؟

- لا يا سيدي ؛ فأنا لم أكن أقرأ على الزجاجة التي تحتوي هذه العقاقير أكثر من الكلمات دواء منوم ، يُستعمل قبل النوم.

- وهل تعاطى هذا الدواء أمس؟

- نعم يا سيدي ؛ فأنا الذي وضعتُ الدواء بالكأس ومزجته بالماء ثم تركت الكأس على الطاولة.

- هل رأيته بعيني رأسك وهو يشرب ما في الكأس؟

- لا يا سيدي.

- وماذا حدث بعدئذ؟

- سألتُه إن كان يريد شيئاً آخر، وعن الساعة التي يريد أن يستيقظ فيها، فقال إنه لا يريد أن يزعجه أحد، وإنه متى استيقظ فسيقزع الجرس.

- في أية ساعة كان السيد راثشيت يستيقظ عادة؟

- لم يكن يستيقظ في ساعة معينة يا سيدي، فتارة ينهض مبكراً، وينهض ظهراً تارة أخرى.

- ولذلك فإنك لم تشعر بالانزعاج حين مرّت ساعات الصباح ولم يدعك ملاحظ المركبة لمقابلة سيدك، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي، لم أشعر بالانزعاج.

- هل كنت تعلم أن لسيدك أعداء؟

- فأجاب الخادم بغير تردد: نعم يا سيدي؛ فقد سمعته يتكلم مع السيد ماكوين عن رسائل تهديد وردت إليه.

- هل كنت تحب سيدك يا سيد ماسترمان؟

- لقد كان سخياً.

- ولكنك لم تكن تحبه، أليس كذلك؟

- الواقع يا سيدي أنني لا أحب الأمريكيين على الإطلاق.

- هل زرت أمريكا؟

- لا يا سيدي.

- هل تذكر أنك قرأت في الصحف شيئاً عن حادث آرمسترونغ؟

فاحمرّ وجه الرجل قليلاً ثم أجاب: نعم يا سيدي، أذكر أنني قرأت عن حادث اختطاف طفلة بهذا الاسم، وقد كان من الحوادث المروّعة.

- هل كنتَ تعلم أن سيدك السيد راتشيت هو المتهم الأول في هذا الحادث؟

- مطلقاً يا سيدي، لم يكن لي علم بذلك.

قال الخادم ذلك بلهجة تدل على الصدق ثم أردف قائلاً: بل أنا لا أصدق ذلك.

- دعنا من هذا الآن ولنتكلم عن تحركاتك في ليلة الجريمة، فأخبرني، ماذا فعلت بعد أن تركتَ سيدك؟

- ذهبت إلى السيد ماكوين فأنبأته بأن السيد راتشيت يريد التحدث إليه، ثم ذهبت بعد ذلك إلى غرفتي وشرعت في قراءة بعض الصحف.

- وغرفتكَ تقع في...

- في مؤخرة مركبة الدرجة الثانية التالية لعربة الطعام.

فألقي بوارو نظرة سريعة على الرسم التخطيطي الذي بين يديه ثم سأله: في أي فراش؟

- الفراش رقم ٤.

- وهل يقيم معك في الغرفة أحد؟

- نعم، يقيم معي شخص إيطالي.

- هل يتكلم هذا الإيطالي الإنكليزية؟

فأجاب الخادم باحتقار: يتكلم الإنكليزية بلهجة سقيمة ، وقد فهمت منه أنه زار أمريكا وأقام في شيكاغو.

- هل كنتما تتبادلان الحديث غالباً؟

- لا يا سيدي ، فأنا أفضل القراءة على سماع الإنكليزية السقيمة.

فابتسم بوارو ثم سأل: هل أستطيع أن أسألك عما كنتَ تقرأ؟

- نعم، كنت أقرأ قصة «أسير الحب» بقلم ريشاردسن.

- لنُعد إلى حديثنا. لقد ذهبتَ إلى غرفتك وشرعت في قراءة قصة «أسير الحب»، ماذا حدث بعد ذلك؟

- حدث في منتصف الساعة الحادية عشرة أن أراد الإيطالي أن ينام، فاستدعى ملاحظ المركبة لإعداد الفراش.

- وعندئذ نمتَ أنت أيضاً، أليس كذلك؟

- بلى ، ولكنني كنت مستلقياً فقط.

- ولماذا لم تنم؟

- لقد شعرت بالألم في أسناني فلجأتُ إلى بعض العقاقير، ولكنني مع ذلك لم أستطع النوم، فأدريت المصباح من فراشي وواصلت القراءة لأنسى الألم.

- ألم تنم على الإطلاق؟

- لم أنم، ولكن غلبني التعب في نحو الساعة الرابعة صباحاً
فأغمضتُ عيني، أما زميلي فقد استغرق في النوم حالماً وضع
رأسه على الوسادة.

- ألم يترك فراشه طوال الليل؟

- نعم يا سيدي، لم يترك فراشه إلى الصباح.

- ولا أنت؟

- ولا أنا.

- هل سمعتَ شيئاً في الليل؟

- لا أظن أنني سمعتُ شيئاً يا سيدي، أعني أنني لم أسمع
شيئاً غير عادي، ولما تعطل القطار كان السكون سائداً.

- ماذا كنتَ تصنع قبل أن تلتحق بخدمة السيد راتشيت؟

- كنتَ خادماً للسير هنري طومانسون بلندن.

- ولماذا تركتَ خدمته؟

- لأنه رحل إلى شرق أفريقيا ولم يكن بحاجة إليّ.

- وكم أمضيت في خدمة السيد راتشيت؟

- تسعة أشهر تقريباً.

- شكراً لك يا ماسترمان. ولكن بالمناسبة. هل تدخن؟

- نعم يا سيدي، أنا أدخن لفائف التبغ.

- أشكرك، لست بحاجة إليك الآن، ولكنني سأدعوك عند

الضرورة.

ولكن الخادم لم ينصرف ، بل تردد قليلاً ، فسأله بوارو: هل لديك ما تريد قوله؟

- نعم يا سيدي ، السيدة الأمريكية الثرثرة المتقدمة في السن ، أعني السيدة هوبار ، في حالة انفعال شديد ، فهي تصرخ قائلةً إنها تعرف حقيقة القاتل.

فابتسم بوارو وقال: في هذه الحالة يجب أن نستجوبها بلا تأخير.

* * *

الفصل الثاني عشر

وصلت السيدة هوبار إلى مركبة الطعام وهي في حالة انفعال شديد، ثم أخذت تقول بأنفاس لاهثة: أرجو أن ترشدوني إلى أيّ شخص ذي سلطة في هذا المكان؛ فلديّ معلومات هامة جداً أود أن أصرح بها في أسرع وقت.

ثم أجملت بصرها حولها، ثم استقرت عينها على بوارو فبدأها بقوله: صرّحي لي بكل شيء يا سيدتي، ولكن أرجو أن تجلسي وتستريحتي أولاً.

فارتمت السيدة هوبار على مقعد أمام بوارو ثم قالت: إن ما أحب قوله لك هو أنه وقعت جريمة قتل هذا المساء وكان القاتل في غرفتي.

ثم كفت عن الكلام لترى تأثير هذا التصريح الخطير في نفوس سامعيها، فقال بها بوارو: هل أنت واثقة يا سيدتي؟

- بكل تأكيد يا سيدي، فأنا أعني ما أقول، وسأصارحك بكل ما أعرف. لقد أويتُ إلى فراشي كالمعتاد لأنام، ولكنني استيقظت في الظلام فجأة وقد استولى عليّ شعور أن الغرفة رجلاً، فذبّ الرعب في قلبي ولم أستطع طلب النجدة، ثم انتظرت بين لحظة

وأخرى أن يهجم هذا الرجل عليّ ويفتك بي ، وفي تلك اللحظة تراحمت في ذهني جميع جرائم القطارات التي قرأتُ عنها، ولكنني طمأنتُ نفسي بأن قلت مهما يكن من أمر فإن القاتل لن يعرف مكان جواهري لأنني خبأتها في جوب عتيق وقد أخفيت هذا الجوب تحت وسادتي.

- هل كنتِ واثقة من وجود شخص بالغرفة؟

- نعم يا سيدي، ولكنني أغمضت عيني وتظاهرتُ بالنوم، ثم أخذت أفكر فيما يجب أن أفعله، وأخيراً تفتق ذهني عن رأي، فمددت يدي ببطء ورحت أبحث بإصبعي عن الجرس حتى وجدته، وعندئذ ضغطت عليه بقوة وضغطت وضغطت، ولكنني لم أسمع وقع خطوات خارج الغرفة، فتوهمت أن ذلك الشخص لا بد أن يكون قد فتك بالمسافرين جميعاً فلم يُبق علي قيد الحياة سواي، ولكنني ظلت أقرع الجرس قرعاً متوالياً، وخُيل إليّ أن جبلاً من الهموم قد زال عن صدري حين سمعت موظف المركبة يقرع باب غرفتي، فصرخت: "ادخل"، وفي الوقت نفسه مددتُ يدي فأضأت النور، ولكن لشد ما كانت دهشتي حين لم أرَ أحداً في الغرفة!

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- ماذا حدث؟ أخبرتُ ملاحظ المركبة بما وقع لكنه لم يصدقني؛ فمن الظاهر أنه ظن أنني كنت أحلم، ولكنه بحث عن الرجل تحت الفراش وفي كل مكان، ولا بد أن يكون الرجل قد فرّ، ولكن كيف؟! لا أدري. أؤكد لك يا سيد... يا سيد... لا أظن أنني أعرف اسمك.

- اسمي بوارو يا سيدتي .

ثم أشار إلى زميليه وأردف قائلاً: وهذا السيد بوك مدير شركة مركبات النوم، وهذا الدكتور قسطنطين.

فغمغمت السيدة هوبار: يسرّني أن أعرفكم أيها السادة.

ثم مضت في قصتها: وقد حدّثني نفسي بأن الرجل الذي شعرتُ بوجوده في غرفتي هو المسافر الذي يقيم بالغرفة المجاورة، أعني ذلك الشخص المسكين الذي قُتل، فذكرت للموظف ما خطر لي ثم طلبت منه أن يفحص الباب المتوسط بين الغرفتين ففعل، وقد وجد أن الباب ليس موصداً بالمزلاج فأمرته أن يوصده، وبعد انصرافه نهضت من فراشي ففحصت الباب مرة أخرى وتأكدت من أنه موصد، ثم وضعت خلفه حقيبة كبيرة لزيادة الاطمئنان.

- كم كانت الساعة وقتئذ؟

- لا أدري لأنني كنت في حالة اضطراب قوي فلم أفكر في معرفة الوقت.

- ألا يمكن يا سيدتي أن يكون ما طرق سمعك هو صوت وقع خطوات في الغرفة المجاورة؟ أعني غرفة القتل.

- لا، لا يا سيد بوارو، أنا على يقين من أن الرجل كان في غرفتي، وإذا أردتَ الدليل فسأقدمه لك.

وارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة، ثم فتحت حقيبة كبيرة كانت في يدها فأخرجت منها منديلين وعدسات وحزمة مفاتيح ودفتر حوالات وصورة فوتوغرافية لطفل وبعض رسائل وزراً ثم قالت: هل ترى هذا الزرّ؟ إنه ليس من أزرار أي ثوب من

ثيابي ، وقد وجدته في غرفتي عندما استيقظتُ في صباح اليوم .
ثم وضعتُ الزرَّ على المنضدة فانحنى السيد بوك وأمعن
النظر إليه قليلاً ثم هتف : ولكن هذا زرّ رسمي لأحد عمال مركبات
النوم .

فابتسم بوارو وأجاب : إذن لا بد أن يكون هذا الزر قد سقط
من ثوب ملاحظ مركبة النوم عندما كان يفتش غرفتك ، أو عندما
كان يرتب فراشك ليلة أمس .

- أنا لا أفهم ماذا تعني يا سيدي ، ويُخيل إليّ أن جميع
الرجال الرسميين قد خُلقوا فقط لإقامة العراقيين . أصغ إليّ يا
سيدي ، لقد كنتُ أقرأ إحدى المجلات ليلة أمس ، وقبل أن أطفئ
المصباح وضعتُ هذه المجلة على حقيبة قريبة من النافذة ، فهل
فهمتُ ما ذكرتُ حتى الآن ؟

فأكد لها بوارو أنه فهم فأردفتُ : حسناً ، وعندما جاء ملاحظ
عربة النوم أوصد الباب بالمزلاج ، الباب الذي يفصل بين غرفتي
وغرفة القتيل ، ولم يقترب مطلقاً من النافذة ، فهل تعلم أين وجدتُ
هذا الزرّ ؟ لقد وجدته على المجلة التي قلت لك إنني وضعتها قبل
أن أنام فوق حقيبة على مقربة من النافذة ، فما رأيك في هذا ؟

- رأيي أن هذا الزرّ يصلح لأن يكون دليلاً هاماً .

فتنفست السيدة الصعداء وظهرت على وجهها علامات
الارتياح ثم قالت : لو لم تصدقني لجنّ جنوني .

- الواقع يا سيدتي أنك قدّمت إلينا دليلاً مفيداً ، ولكن هل
تسمحين لي بأن ألقى عليك سؤالاً ؟

- بكل سرور.

- كيف حدث أنك أغفلت الباب الذي يفصل بين غرفتك وغرفة السيد راتشيت، فلم تلاحظي أنه غير موصد بالمزلاج، على الرغم من أنك عبّرت عن نفورك من راتشيت وفرعك من منظره؟

فأجابت في الحال: كيف علمت أنني لم ألاحظ ذلك؟

- ماذا فعلتِ إذن؟

- طلبت من السيدة السويدية عندما جاءتني أن تتأكد من أن الباب موصد ففعلت.

- ولماذا لم تتأكدي بنفسك؟

- لأنني كنت في فراشي، وكانت المنشقة موضوعة فوق المزلاج.

- كم كانت الساعة عندما طلبت منها أن تتأكد من أن الباب موصد؟

- دعني أفكر، نعم، كانت الساعة وقتئذ العاشرة والنصف تقريباً.

ثم ضحكت فجأة وتابعت: مسكينة تلك السيدة السويدية، فقد كانت تبحث عن غرفتي ففتحت باب غرفة راتشيت خطأ، ويبدو أنه قال لها شيئاً على سبيل الدعابة لم يُرضها فهرولت إلى غرفتي وهي مضطربة حزينة لوقوعها في هذا الخطأ.

- حدثيني، هل تذكرين شيئاً عن حادث اختطاف ديزي

آرمسترونغ؟

- نعم، أذكر. وأذكر أن المجرم الأثيم خرج من الولايات المتحدة ورأسه بين كتفيه. نعم، لقد نجا من القصاص.

- لا يا سيدتي، لم ينبُج من القصاص لأنه مات أمس.

- أتعني أن...

ثم نهضت من مكانها فجأة فنظرت إلى بوارو بمزيج من الدهشة والخوف فقال بوارو: نعم، راتشيت هو المجرم المسؤول عن حادث ديزي آرمسترونغ.

- يا إلهي! لا بد أن أبعث إلى ابنتي بهذا النبأ الظريف. ولكن ألا تذكر أنني قلتُ لك أمس إن للرجل سحنة لا تدعو إلى الطمأنينة.

- هل كانت لك صلة بأي فرد من أفراد أسرة آرمسترونغ؟

- لا، فقد كانوا يعيشون في محيط خاص، ولكنني كنتُ أسمع عن السيدة آرمسترونغ. كانت سيدة دمثة الخلق وكان زوجها يحبها حباً شديداً.

- أشكرك يا سيدة هوبار فقد قدمت إلينا معلومات في غاية في الأهمية، ولكن هل تسمحين بذكر اسمك كاملاً؟

- بغير شك، اسمي كارولين مارتا هوبار.

- هلاً كتبت عنوانك على هذه الورقة؟

ثم قدّم إليها قصاصة ورق فكتبت عنوانها ثم سألتها: بالمناسبة يا سيدة هوبار، هل لديك وشاح من الحرير الأحمر؟

- ما أعجب هذا السؤال يا سيدي! لا، أنا لا أملك وشاحاً أحمر، فكل ما عندي وشاحان أحدهما قرمزي والثاني وردي، ولكن ما شأنك أنت والسؤال عن ثيابي؟

- الواقع يا سيدتي أن امرأة ترتدي وشاحاً أحمر اللون دخلت غرفتك أو غرفة السيد راتشيت ليلة أمس.

- أؤكد لك أنني لم أقابل في غرفتي سيدة ذات وشاح أحمر.

- إذن فلا بد أن تكون هذه السيدة دخلت غرفة راتشيت.

فقلّبت السيدة هوبار شفيتها ثم أجابت بقلة اكتراث: ربما.

فنظر إليها بوارو بحدة ثم سألها: إذن فقد سمعت صوت امرأة في غرفة راتشيت؟

- حقيقة لا أدري كيف عرفتُ... نعم، لا أدري، ولكنني في الواقع سمعتُ صوت امرأة في غرفة راتشيت.

- كم كانت الساعة عندما سمعت صوت امرأة في غرفة راتشيت؟

- لا أدري، لقد استيقظت من نومي فسمعت صوت امرأة تتكلم، وعلمت مصدر الصوت فقلت لنفسي إن هذا ما يُنتظر من شخص مثل راتشيت.

- هل سمعت صوت المرأة في غرفة راتشيت قبل أن تتوهمي بوجود شخص في غرفتك؟

- من المؤكد أن راتشيت لم يكن يتكلم مع المرأة وهو

ميت ، فقد قلتُ لك إنه كان ميتاً عقب حادث الرجل الذي دخل
غرفتي .

- لقد فهمتُ ، شكراً لك .

ثم أخذ يعاونها على وضع أشياءها في الحقيبة ثم رافقها إلى
الباب ، وقبل أن تغادر السيدة هوبار الغرفة قال بوارو : لقد نسيتِ
منديلك يا سيدتي .

فألقت نظرة سريعة على المنديل الذي بيده ثم أجابت على
الفور : هذا ليس منديلي يا سيدي ؛ فمنديلي هنا في الحقيبة .

- عفواً لقد ظننته منديلك لأنني رأيت على أحد أطرافه
حرف هـ .

- الحروف التي أطرزها على منديلي هي «ك م هـ» لا «هـ»
فقط ، ثم إن جميع مناديلي كبيرة الحجم فلستُ أجد في الواقع
لمنديل صغير مثل هذا أية فائدة .

* * *

الفصل الثالث عشر

تناول السيد بوارو الزرّ الذي تركته السيدة هوبار وأخذ يقلّبه بين أصابعه ثم قال: ما رأيك يا سيد بوك؟ هل تظن أن لبيير ميشيل يداً في الجريمة؟

- من يدري؟ سنعرف كل شيء بعد إتمام التحقيق.

- والآن يجب أن نسمع أقوال السيدة السويدية.

ثم أخذ يبحث بين جوازات السفر التي أمامه حتى عثر على الجواز الخاص بالسيدة السويدية فقرأ فيه: «غريتا أولسون، عمرها ٩٤ سنة». ثم أمر السيد بوك أن يدعو هذه السيدة، فأقبلت بعد دقائق وهي هادئة ثابتة الجنان، وبدأ أنها تجيد الفرنسية، ثم طرح بوارو عليها الأسئلة التي يعرف أجوبتها والخاصة باسمها وعمرها وعنوانها، ثم سألها عن مهنتها فأجابت بأنها تدير إحدى مدارس الإرساليات الأمريكية على مقربة من إسطنبول فقال لها: لا شك أنك قد علمت بما حدث في القطار ليلة أمس.

- طبعاً، وهو حادث مخيف حقاً، وقد أخبرتني السيدة الأمريكية أن المجرم كان في غرفتها.

- قيل لي يا سيدتي إنك كنت آخر من رأى الضحية على قيد

الحياة، فهل هذا صحيح؟

- لا أدري يا سيدي، قد يكون هذا صحيحاً، ولكن في الواقع أنني فتحتُ باب غرفته خطأً فخرجتُ خجلاً عظيماً.

- هل وقع نظركِ عليه عندما فتحتُ بابه؟

- نعم، وكان وقتئذٍ يطالع كتاباً، فاعتذرتُ إليه وانسحبت في الحال.

- وماذا فعلتِ بعد ذلك يا سيدتي؟

- ذهبتُ إلى غرفة السيدة الأمريكية السيدة هوبار وطلبت منها دواءً مسكناً للصداع.

- هل طلبتِ منك أن تتأكدي ما إذا كان الباب الموصل بين غرفتها وغرفة السيد راتشيت موصداً؟

- نعم.

- هل كان موصداً حقاً؟

- نعم.

- وماذا بعد ذلك؟

- بعد ذلك عدتُ إلى غرفتي واستلقيت على فراشي.

- كم كانت الساعة حينئذٍ؟

- عندما استلقيتُ في فراشي كانت الساعة الحادية عشرة إلا بضع دقائق.

- وهل استغرقت في النوم على الفور؟

- لا؛ فالصداع استمرّ بعض الوقت.
- أهذه هي غرفتك؟
- ثم أشار إلى الرسم الذي بين يديه فأجابت: نعم، هذه
غرفتي.
- هل تقيم معك فيها سيدة أخرى؟
- نعم، فتاة إنكليزية وديعة دمثة الخلق، وقد ذكرت لي أنها
آتية من بغداد.
- هل تركت هذه الفتاة الغرفة بعد أن غادر القطار محطة
فنكوفكي؟
- لا، أنا واثقة أنها لم تغادر الغرفة.
- كيف تكونين واثقة مع أنك استغرقت في النوم؟
- أنا أستيقظ عند أقل حركة، ومجرد فتح الباب يكفي
لإيقاظي.
- وأنتِ، هل غادرتِ الغرفة بعد المحطة المذكورة؟
- لا، لم أغادر غرفتي إلا صباحاً.
- هل تملكين وشاحاً أحمر اللون؟
- لا يا سيدي.
- والفتاة الإنكليزية التي تقيم معك في المركبة، أعني الآنسة
دبنهام، هل تملك وشاحاً أحمر؟
- لا، إنها ترتدي وشاحاً أصفر اللون، وقد ذكرت أنها ابتاعته

في بغداد.

فأطرق بوارو برأسه ثم سألها بلطف: هل سافرتِ مرّةً إلى أمريكا؟

- لا، كدتُ أن أذهب مرةً برفقة سيدة مريضة، ولكن السيدة ألغت رحلتها في آخر لحظة فأسفْتُ لذلك كل الأسف؛ فالأمريكيون قوم طيّبون كرماء ينفقون بسخاء في إنشاء المدارس والمستشفيات.

- هل سمعتِ يوماً عن حادث اختطاف طفلة من أسرة معروفة تُسمّى أسرة آرمسترونغ؟

- لا. ما هذا الحادث؟

وهنا قصّ عليها بوارو حكاية ديزي آرمسترونغ، فأصغت السيدة السويدية إلى هذه الرواية بانتباه ثم ظهرت عليها علامات الاشمئزاز وهتفت: يا إلهي! من يصدق أن في العالم أشراراً من هذا النوع؟ مسكينة والدة الطفلة. قلبي يتصدّع إشفاقاً عليها!

ثم انصرفت السيدة السويدية وعيناها مليئتان بالدموع، أما بوارو فقد تناول قلمه وأخذ يكتب باهتمام، فسأله السيد بوك: ماذا تكتب يا صديقي؟

فأجاب بوارو: قد اعتدتُ أن أنظّم عملي حتى لا تختلط عليّ الأدلة، وأنا الآن أسجل الحوادث بترتيب وقوعها.

ولما فرغ من الكتابة دفع بالورقة إلى السيد بوك فقرأ فيها: في الساعة التاسعة والربع غادر القطار محطة بلغراد، وفي الساعة التاسعة وأربعين دقيقة وضع الخادم الدواء في غرفة راتشيت ثم

انصرف، وفي الساعة العاشرة غادر ماكوين غرفة راتشيت، وفي الساعة العاشرة وأربعين دقيقة وقع بصر غريتا أولسون على راتشيت الذي كان جالساً يقرأ، وهذه هي آخر مرة شوهد فيها الرجل على قيد الحياة، وفي الساعة الثانية عشرة وعشر دقائق غادر القطار محطة فنكوفكي، وفي الساعة الثانية عشرة والنصف تعطل القطار بسبب تراكم الثلوج، وفي الساعة الثانية عشرة وسبعة وثلاثين دقيقة دق راتشيت الجرس فهرول إليه ملاحظ المركبة، ولكن راتشيت لم يفتح الباب وقال بالفرنسية إنه لا يطلب شيئاً وأنه أخطأ في دق الجرس، أما في الساعة الواحدة وسبع عشرة دقيقة فقد توهمت السيدة هوبار أن في غرفتها رجلاً، فدقت الجرس.

قرأ السيد بوك هذه الملاحظات ثم هزّ رأسه موافقاً فسأله بوارو: ألا ترى في هذا البيان ما يلفت النظر؟

- لا شيء؛ فالأمر واضح غاية الوضوح، وأكبر ظني أن الجريمة ارتكبت نحو الساعة الواحدة والربع، فساعة القتل تؤيد ذلك، وكذلك أقوال السيدة هوبار لا تدع سبيلاً للشك، وإذا أردت رأيي في المجرم فأنا أقول إنه ذلك الإيطالي الضخم الجسم، ذلك لأنه قادم من أمريكا، أو على الأصح قادم من شيكاغو، ومما هو جدير بالملاحظة أن الخنجر هو سلاح الإيطاليين، والإيطالي لا يكفي بطعنة واحدة بل يطعن العديد من الطعنات.

- هذا صحيح.

- ولا شك أن الجريمة تتلخص فيما يلي: كان هذا الإيطالي شريكاً لراتشيت في جريمة الاختطاف، واسم راتشيت الأصلي هو كاسيتي كما ذكرت أنت، وهو اسم يدل على أنه إيطالي،

ومن المحتمل أن يكون راتشيت قد أوقع بهذا الرجل الإيطالي أو خدعه، فتعقبه هذا وطارده وأرسل إليه خطابات التهديد والوعيد، ثم فتك به بهذه الصورة الفظيعة، فتلك هي المسألة بسيطة كما ترى.

- وما رأيك في الخادم ماسترمان الذي أقسم أن ذلك الإيطالي لم يغادر الغرفة؟

- هذا موضع الحيرة.

فغمز بعينه وقال: أجل، هذا موضع الحيرة؛ فأقول الخادم تهدم نظريتك وتنقذ الإيطالي من تبعة الجريمة.

* * *

الفصل الرابع عشر

قال بوارو: يجب أن نسأل بيير ميشيل عن رأيه في هذا الزرّ الذي وجدته السيدة هوبار في غرفتها.

ثم دُعي بيير ميشيل فدخل المكان وفي عينيه نظرة قلق وجزع، فقال له السيد بوك: أصغ إليّ يا ميشيل. لقد وجدنا زرّاً من سُترتك في غرفة السيدة الأمريكية، فكيف تفسر وجوده هناك؟

فنظر ميشيل إلى سُترته ثم أجاب في الحال: هذا الزرّ ليس من سُترتي يا سيدي؛ فجميع أزراري تامّة. لا بد أن هناك خطأ ما.

قال بوك: لقد وُجد هذا الزرّ في ظروف تدل على أن صاحبه دخل غرفة السيدة هوبار ليلة أمس عندما دقّت الجرس.

- ولكنني أوكد لك يا سيدي أنه لم يدخل أحد غرفة السيدة هوبار. لقد كانت واهمة.

- لا يا ميشيل، لم تكن واهمة؛ فالرجل الذي قتل السيد راتشيت مرّ من غرفتها، وقد سقط منه هذا الزرّ.

- هذا غير صحيح... هذا غير صحيح. أتتهمني بارتكاب الجريمة؟! أنا بريء يا سيدي، فما الذي يدعوني إلى الفتك برجل لا

أعرف عنه قليلاً أو كثيراً ولم يقع بصري عليه قبل هذه الرحلة؟!

- أين كنتَ عندما دقَّت السيدة هوبار الجرس؟

- قلت لك يا سيدي إنني كنت في المركبة الأخرى أتحدث مع زميل.

- سنبعث في طلب زميلك.

- أجل يا سيدي، أرجو أن ترسل في طلبه حتى تزول عني كل شبهة.

ثم جيء بملاحظ المركبة الثانية فأقرّ ما ذكره ميشيل، كما أضاف إلى ذلك قوله: ملاحظ مركبة النوم التي ألحقت بالقطار في محطة بوخارست كان موجوداً في أثناء الحديث الذي دار بينه وبين ميشيل، وذلك الحديث كان يدور حول الجوِّ وكثرة الجليد، وقد استغرق هذا الحديث عشر دقائق، ثم سمع ميشيل الجرس فهرول إلى مركبته.

فلما فرغ الرجل من هذه الشهادة هتف ميشيل: أرايتَ يا سيدي أنني بريء؟

- ولكن هذا الزرّ! كيف تفسر وجوده في غرفة السيدة هوبار؟

- لا أستطيع أن أفسر شيئاً يا سيدي؛ فأنا لم أفقد هذا الزرّ.

وأكد زميله مثل ذلك، ثم أكّدا أنهما لا يعرفان السيدة هوبار ولم يدخلا غرفتها، فقال السيد بوك: هديّ من روعك يا ميشيل وتذكّر بهدوء. هل صادفك أحد وأنت في طريقك لتلبية

نداء السيدة هوبار؟

- لا يا سيدي، لم يصادفني أحد.

- هل رأيت أحداً يسير في الرواق نحو إحدى المركبات الأخرى؟

- لا، لم أرَ أحداً.

- هذا غريب حقاً!

فقال بوارو وكان قد لزم الصمت في أثناء الحديث الذي دار بين بوك وموظفيه: لا يا عزيزي، ليس في الأمر شيء من الغرابة؛ فالمسألة مسألة وقت. لقد استيقظت السيدة هوبار وقد شعرت بأن في غرفتها شخصاً مجهولاً، فاستولى الرعب عليها فأغمضت عينيها وراحت تفكر في طريقة للخلاص، وفي تلك الأثناء لا بد أن يكون الرجل قد تسلل من غرفتها إلى الرواق، وبعد أن استعادت روعها قرعت الجرس بشدة فلم يحضر ميشيل في الحال لأنه كان يتحدث مع زميليه، وعندما سمع ميشيل صوت الجرس هرب إلى غرفة السيدة هوبار، وفي تلك الأثناء كان المجرم قد تمكن من...

فقاطعه السيد بوك بحدّة: كيف يكون قد تمكن من الفرار والقطار محاط بالثلوج من كل ناحية يا عزيزي؟!

فقال بوارو ببطء: لم أقل إن المجرم فرّ من النافذة؛ فقد كانت أمامه وسيلتان للاختفاء: الأولى أن يتوارى في الحمام، والثانية أن يختفي في إحدى غرف القطار.

- ولكن الغرف جميعاً حافلة بالمسافرين.

- أجل.

- أجل، اختفى في غرفته، هذا ممكن.

فأطرق بوارو برأسه ثم أجاب: لا يزال أمامنا ثمانية أشخاص يجب أن نستجوبهم، خمسة منهم في مركبات الدرجة الأولى هم الأميرة دراغوميروف، والكونت والكونتيسة أندريني، والكولونيل أربنتوت، والسيد هاردمان، وثلاثة في مركبات الدرجة الثانية هم الآنسة دبنهام، وأنطونيو فوسكاريللي، والفتاة الألمانية الآنسة شميد.

- من تريد أن ترى أولاً؟ الرجل الإيطالي؟

- أراك ناقماً على هذا الإيطالي وتريد الإيقاع به، لا شيء إلا لتحقيق وجهة نظرك في أنه القاتل. لا يا عزيزي بوك، من رأيي أن نبدأ من قمة الشجرة فنستجوب الأميرة الروسية أولاً.

ثم التفت إلى بيير ميشيل فقال له: أرجو أن تخبر الأمير دراغوميروف أنني أودّ مقابلتها، فإذا لم تستطع الحضور فقل لها إنني على استعداد للانتقال إلى غرفتها.

لكن الأميرة أجابت الدعوة في الحال وحضرت بنفسها، فحيّت بوارو وبوك والطبيب بإحناء رأسها، ثم قعدت على المقعد الذي قدمه إليها بوارو، فأراد السيد بوك أن يعتذر عن إزعاجها فقاطعته بقولها: لا داعي للاعتذار يا سيدي، فقد علمتُ أن جريمة قتل قد وقعت في هذا القطار، ومن الطبيعي أن يُستجوب جميع المسافرين، وثق تماماً أنه يسرّني أن أساعد في التحقيق بقدر ما أستطيع.

فأجابها بوارو: شكراً لك يا سيدتي.

- سلني عما تريد يا سيدي، أنا على استعداد تام للإجابة.

فقدم لها ورقة وقلماً وقال لها: هلا كتبت اسمك كاملاً
وعنوانك؟

- اكتب أنت، اسمي ناتاليا دراغوميروف، وعنواني شارع
كليبّر رقم ١٧ باريس.

- هل أنت آتية من إسطنبول يا سيدتي؟

- نعم يا سيدي، وقد كنت أقيم في إسطنبول بدار المفوضية
وبرفقتي خادمتي.

- وإلى أين تسافرين؟

- إلى باريس طبعاً.

- هل بمقدوري أن أعلم منك شيئاً عن تحركاتك ليلة
أمس؟

- بكل تأكيد. لقد كنتُ أتناول طعام العشاء بمركبة الطعام في
حين أمرت ملاحظ مركبات النوم بإعداد فراشي، ولما انتهيت من
الطعام ذهبت إلى غرفتي في الحال، ثم تناولت كتاباً فأخذت أطلّعه
حتى أصبحت الساعة الحادية عشرة فأطفأت النور الكهربائي،
ولكنني لم أنم في الحال لأنني كنت أتألم من مرض الروماتيزم،
وبعد ربع الساعة تقريباً قرعت الجرس ودعوت خادمتي فمكثت
معها، وراحت تقرأ لي بصوت مسموع حتى غلبني النعاس فنمت،
ولا أذكر بالضبط متى غادرت الخادمة غرفتي؛ فهي ربما بقيت

معي ساعة أو نصف الساعة، لا أعلم تماماً.

- هل شعرت بالقطار عندما توقف؟

- نعم.

- ألم تسمعي ضجة غير عادية؟

- نعم، لم أسمع شيئاً غير عادي.

- ما اسم خادمتك؟

- هلدغارد شميد.

- هل أمضت في خدمتك مدة طويلة؟

- أمضت في خدمتي خمسة عشر عاماً تقريباً.

- لا شك أنك سافرت إلى أمريكا مرة على الأقل.

رفعت الأميرة حاجبها، فقد أدهشها هذا الانتقال الفجائي
من موضوع إلى آخر ولكنها أجابت: بل سافرت مراراً.

- هل اتفق لك أن سمعت بأمريكا عن أسرة تحمل اسم
آرمسترونغ؟

فأجابت الأميرة بصوت يتهدج: كان بعض أفراد هذه الأسرة
من أعزّ أصدقائي.

- هل عرفت الكولونيل آرمسترونغ؟

- معرفة بسيطة، ولكن زوجته سونيا آرمسترونغ كانت من
أكرم صديقاتي، وكذلك كانت تربطني بأُمها الممثلة ليندا آردن

أوثق روابط الصداقة. لقد كانت ليندا آردن امرأة موهوبة، وأعتقد أنها كانت من أعظم الممثلات اللائي ظهرن في القرن العشرين، وقد كانت بارعة في تمثيل دور الليدي ماكبث.

- هل ماتت هذه الممثلة؟

- لا، لا، مازالت على قيد الحياة، ولكنها تعيش في معزل عن الناس لأن حالتها الصحية ليست على ما يرام، فهي تقضي كل وقتها ممددة في مقعد كبير.

- أظن أن لهذه السيدة ابنة أخرى غير زوجة الكولونيل آرمسترونغ؟

- أجل، لها ابنة أصغر بكثير من زوجة الكولونيل.

- ألا تزال هذه الابنة على قيد الحياة؟

- بكل تأكيد.

- وأين هي الآن؟

فحدجته الأميرة بنظرة حادة ثم قالت: يجب أن أعلم أولاً لماذا تُلقِي كل هذه الأسئلة؟ وما الصلة بين عائلة آرمسترونغ والجريمة التي حدثت في هذا القطار؟

- توجد صلة وثيقة بين الموضوعين يا سيدتي الأميرة، فإذا شئت لخصتُ لك هذه الصلة فيما يلي: الرجل الذي قُتل في هذا القطار هو الذي ارتكب جريمة اختطاف وقتل ابنة الكولونيل آرمسترونغ.

- آه! إذا كان كذلك فأنا مستريحة لقتل هذا السفاح.

- هذا طبيعي يا سيدتي؛ فكل إنسان اطلع على قضية
آرمسترونغ لا يسعه إلا الشعور بكراهية هذا المجرم الأثيم الذي
أفنى هذه العائلة السعيدة بجريمته المنكرة. والآن لنعد إلى السؤال
الذي لم تجيبي عليه: أين تقيم أصغر بنات ليندا آردن الآن؟

- الواقع يا سيدي أنني لا أعلم أين تقيم، فقد انقطعت الصلة
بيني وبين هذا الجيل الحديث، ولكنني أظن أنها تزوجت برجل
إنكليزي منذ عدة أعوام وأنها رحلت معه إلى إنكلترا.

- سؤال آخر يا سيدتي. ما لون وشاحك؟

- لا بد أن هناك ما يدعو إلى إلقاء هذا السؤال العجيب،
ولذلك سأجيبك عليه فأقول لك إن وشاحي أزرق اللون.

قالت ذلك ثم نهضت واقفة، فنهض الرجال الثلاثة احتراماً
لها.

* * *

الفصل الخامس عشر

دُعي الكونت والكونتيسة أندريني لأداء الشهادة، فأقبل الأول وحده واعتذر عن غياب زوجته قائلاً إنها ستلحق به بعد قليل. كان الكونت شاباً في مقتبل العمر نحيفاً طويل القامة جذاب المنظر يرتدي ثوباً على الطراز الإنكليزي. وقد بادره بوارو بالسؤال عن الغرض من استقدامه فقال له: لعلك علمتَ بما حدث ليلة أمس يا سيدي، وأنه قد اضطرنا إلى سؤال المسافرين للوقوف على بعض المعلومات.

- أنا رهن إشارتك يا سيدي فاسأل عما تريد، وإنه لمن دواعي أسفي ألا أستطيع أنا وزوجتي أن نقدم إليك معلومات قيمة، فقد كنا نائمين ولم نسمع شيئاً غير عادي.

- هل تعرف شخصية القاتل يا سيدي؟

فأجاب الكونت على الفور: لا يا سيدي.

ثم أردف بعد لحظة: إذا أردتَ أن تعرف اسمه فليس عليك إلا أن ترجع إلى جواز سفره.

- اسمه في جواز السفر هو راتشيت، ولكن هذا ليس اسمه الحقيقي، فاسمه الحقيقي هو كاسيتي، المجرم الإيطالي الذي لعب

دوراً هاماً في قضية أرمسترونغ بأمريكا.

ثم نظر إلى الكونت بحدة ليرى تأثير هذا النبأ عليه، ولكن الكونت ظل محتفظاً بهدوئه، وكل ما فعله أنه رفع حاجبيه ببطء وأجاب: لا شك أن هذا مما ساعد على ارتكاب الجريمة.

- هل ذهبتَ إلى أمريكا يا سيدي الكونت؟

- نعم، فقد قضيت عاماً في واشنطن.

- هل تعرف أسرة أرمسترونغ؟

- أرمسترونغ؟ لا أتذكر جيداً يا سيدي، فقد عرفتُ في أثناء إقامتي في واشنطن كثيراً من الأسر الأمريكية الطيبة.

- متى عدتَ إلى غرفتك ليلة أمس؟

- أنا وزوجتي نشغل الغرفتين المتجاورتين ١٢ و ١٣.

فألقي بوارو نظرة سريعة على الرسم الذي بين يديه ثم أردف الكونت: وعندما كنا نتناول طعام العشاء أمرتُ ملاحظ عربات النوم بإعداد الغرفتين، ولما فرغنا من الطعام وجدناه ما زال يُعدّ الغرفة رقم ١٢، فذهبت مع زوجتي إلى الغرفة ١٣، وهناك أخذنا نتسلى بلعب الورق، وفي الساعة الحادية عشرة ذهب كل منا إلى فراشه واستغرقنا في نوم عميق حتى الصباح.

- هل لاحظتَ أن القطار تعطل في الطريق؟

- لم ألاحظ ذلك إلا في الصباح.

- وزوجتك؟

فابتسم الكونت ثم أجاب: لقد اعتادت زوجتي أن تتناول بعض العقاقير الطبية لتساعدنا على النوم في أثناء السفر.

فقدّم له بوارو ورقة وقلماً وقال: شكراً لك يا سيدي الكونت، فقط أرجوك أن تتفضل بكتابة اسمك وعنوانك على هذه الورقة.

فكتب الكونت اسمه وعنوانه بخط ناعم ثم نهض لينصرف، ولكنه عاد فتردد في مكانه ثم سأل: أظن أنه ليس من الضروري استخدام زوجتي؛ فهي لا تستطيع أن تقدم إليكم شيئاً من المعلومات.

فلمعت عينا بوارو ثم أجاب: ومع ذلك أرجو أن تتفضل فتبعث بها إليّ.

- أوكد لك أنه لا فائدة من استقدامها.

وقد نطق بالكلمات الأخيرة بشيء من الحدة فقال بوارو بلطف: مصلحة التحقيق تقضي بسؤال جميع المسافرين بلا استثناء.

- لك ما تريد.

ثم أحنى قامته باحترام وانصرف. عندئذ بحث بوارو عن جواز سفر الكونت حتى عثر عليه، فقرأ ما كُتب فيه خاصاً باسم الكونت ولقبه ومنصبه، كما قرأ هذه الكلمات: «ترافقه زوجته واسمها ألينا ماريا ولقبها غولدنبرغ، وعمرها ٢٠ سنة». فقال السيد بوك: هذا جواز سفر دبلوماسي، أليس كذلك؟ يجب أن تكون حريصاً يا صديقي حتى لا تثير مشكلة دولية، فمن المؤكد أن الكونت وزوجته لا صلة لهما بالجريمة.

- اهدأ يا عزيزي، سأكون حريصاً لبقاً.

وفي تلك اللحظة أقبلت الكونتيسة أندريني تسير ببطء ورأسها الجميل مطرق ومظاهر الاحتشام والخجل تبدو في مشيتها وحركاتها، ثم سألت: هل أنتم بحاجة إليّ أيها السادة؟

فأجابها بوارو: هذه مجرد إجراءات عادية يا سيدتي الكونتيسة.

ثم نهض واقفاً باحترام ففعل زميلاه مثل ما فعل، وجلست الكونتيسة على المقعد الذي قدمه إليها الشرطي السري ثم سألها بوارو: لقد دعوتك يا سيدتي لأسألك عما إذا كنت قد رأيت أو سمعت شيئاً من شأنه أن يلقي ضوءاً على حادث الأمس.

- لا يا سيدي، لم أسمع ولم أر شيئاً؛ فقد كنت نائمة.

- ألم تسمعي مثلاً حركة غير عادية في الغرفة المجاورة لغرفتك؟ لقد أُصيبت السيدة التي تقيم في الغرفة بنوبة عصبية ففرعت الجرس بشدة لمدة طويلة.

- لم أسمع شيئاً لأنني أتناول بعض العقاقير لمقاومة الأرق يا سيدي.

- آه، هذا حقيقي. إذن لا فائدة من إلقاء أسئلة أخرى.

وهنا نهضت الكونتيسة بسرعة.

ولكن بوارو عاد فاستوقفها بقوله: عفواً، أرجو البقاء لحظة أخرى. هل البيانات التي ذكرت عنك في جواز السفر صحيحة كلها؟

- نعم يا سيدي.

- إذن، هل لديك مانع من كتابة اسمك وعنوانك على هذه الورقة؟

- لا، بكل تأكيد.

ثم كتبت اسمها فسألها بوارو: هل رافقت زوجك إلى أمريكا يا سيدتي؟

- لا يا سيدي لأننا لم نكن قد تزوجنا بعد، فقد تزوجنا منذ عام واحد.

- شكراً لك يا سيدتي، ولكن بهذه المناسبة، هل زوجك يُدخن؟

فنظرت إليه بدهشة ثم أجابت: نعم.

- وهل لديه غليون؟

- لا، بل يدخن لفافات التبغ.

- شكراً لك.

وكان بوارو يتوقع أن تنصرف الكونتيسة بعد ذلك بسرعة، ولكن أدهشه أنه رآها لا تزال واقفة أمامه، فرفع إليها عينيه فوجدها تنظر إليه وفي عينيها الساحرتين نظرة فضول ثم سأله: لماذا ألقيت عليّ كل هذه الأسئلة؟

فأجابها: ليس من المدهش أن يلقي الشرطي السري أي نوع من الأسئلة يا سيدتي، فأنا مثلاً يهمني كثيراً أن أعلم ما لون وشاحك.

فازدادت دهشتها، ولكنها ضحكت ثم أجابت: لونه رمادي،
ولكن هل يهَمُّك أن تعلم كل هذه المعلومات التافهة حقاً؟

- يهَمُّني جداً يا سيدتي.

- هل أنت شرطي سري؟

- نعم يا سيدتي.

فابتسمت وحيّته بعينيها الساحرتين ثم انصرفت، ولم تك
تغيب عن أنظار القوم حتى هتف السيد بوك: ما أجمل هذه
المرأة!

وتنهّد ثم أردف: هل ستستجوب الإيطالي الذي أرتاب في أنه
ارتكب الجريمة؟

فلم يجبه بوارو لأنه كان لا يزال يفحص جواز سفر الكونت
الهنغاري.

* * *

الفصل السادس عشر

نهض بوارو عن مقعده وأخذ يسير في المكان جيئةً وذهاباً، ثم توقف فجأةً أمام السيد بوك وقال له: من رأيي أن نبدأ بسؤال الكولونيل أربنتوت.

ثم جيء بالكولونيل فوجد بوارو أن محصوله من اللغة الفرنسية محدود؛ فشرع في استجوابه باللغة الإنكليزية، وقد ذكر الكولونيل اسمه ولقبه وعنوانه ورتبته في الجيش، وقال إنه عائد من الهند إلى إنكلترا في إجازة. ثم سأله بوارو: لماذا لم تبحر إلى إنكلترا على إحدى السفن لتوفّر على نفسك متاعب السفر برّاً؟

- هذا من شأني وحدي.

- هل كانت رحلتك متصلة؟

- لا، بل قضيت ثلاثة أيام في بغداد في ضيافة صديق لي.

- أنت أمضيت ثلاثة أيام في بغداد وعلمت أن الآنسة دبنهام أتت كذلك من بغداد. ترى هل قابلت هذه الآنسة وتعرفت عليها هناك؟

- لا، لقد رأيتهما لأول مرة في القطار بين كركوك ونصيبين.

- أصغ إليّ يا سيدي. أنت والآنسة دبنهام الإنكليزيان الوحيدان في هذا القطار، ويهمني أن أعرف رأي كل منكما في الآخر، فما رأيك في هذه الآنسة؟

فأجاب الكولونيل ببرود: هذا السؤال لا سبب له.

- لا يا سيدي، بل يوجد سبب؛ فأنا أعتقد أن الجريمة قد ارتكبت بيد امرأة لأن القتل أُصيب باثني عشرة طعنة، وليس هذا رأيي وحدي بل هو رأي جميع من رأوا الجثة، ولذلك عُيّنت باستجواب السيدات أكثر من عنايتي باستجواب المسافرين من الرجال، ولما كان من السهل استدراج السيدات غير الإنكليزيات فأنا لم أضطر إلى سؤال أحد من المسافرين عنهن، أما الآنسة دبنهام فهي إنكليزية ولا أستطيع الحصول على الكثير من المعلومات من السيدات الإنكليزيات، بل لا أستطيع أن أوقع بإحداهن في التحقيق لأن أجوبتهن مقتضبة، لذا أسألك باسم العدالة أن تصدّقنا القول يا سيدي وأن تكشف لنا عما تعلم عن الآنسة دبنهام.

- الآنسة دبنهام لا تعرف القتل، ولم يسبق لها أن رآته أبداً.

- هل قالت لك ذلك؟

- نعم، فقد تحدثنا عنه مرة بمناسبة نفورها من منظره، كما أوكد لك أنه من المستحيل أن يكون للآنسة دبنهام صلة أو شبه صلة بهذه الجريمة.

- نحن نعتقد أن هذه الجريمة ارتكبت في الساعة الواحدة والربع بعد منتصف ليلة أمس، ومن واجباتنا العادية في مثل هذه الحالة أن نسأل كل مسافر عما كان يفعل عند وقوع الجريمة.

- هذا طبيعي ، فإذا كان يهملك أن تعلم ماذا كنتُ أفعل في ذلك الحين فاعلم أنني كنت أتحدث إلى ذلك الشاب الأمريكي سكرتير القتل.

- هل هو صديقك؟

- لا ، أنا لم أره قبل هذه الرحلة ، وقد وجدتُ أن له آراء عجيبة عن سياسة بريطانيا في الهند ، ولما كنت قد أمضيت ثلاثين عاماً في الهند وأعلم من شؤونها أكثر مما يعلم غيري فقد أوضحت له حقيقة الموقف في الهند ، فراق له حديثي كما راق لي حديثه عن الحالة المالية في أمريكا ، ثم تكلمنا عن الحالة السياسية بصفة عامة ، وكانت دهشتي عظيمة حين نظرت إلى ساعتني فوجدتها الثانية إلا الربع ، فذهبت إلى غرفتي في الحال واستلقيت في فراشي .

- هل كان الخادم قد أعدّ لك فراشك؟

- نعم .

- أين كان ملاحظ المركبة عندما ذهبت إلى غرفتك؟

- كان جالساً أمام طاولة صغيرة وقد استدعاه السيد ماكوين بمجرد انصرافي من غرفته .

- لماذا استدعاه؟

- أظن أنه دعاه ليعدّ له فراشه .

- أرجو الآن أن تفكر بتركيز أكثر في هذا السؤال يا سيدي الكولونيل . هل تذكر أنك رأيت أحداً يمرّ برواق المركبة في أثناء وجودك في غرفة السيد ماكوين؟

- أظن أن كثيرين مرّوا بالرواق، ولكنني لم أهتم بمراقبتهم.

- يهمني كثيراً أن أعلم إذا كنت قد رأيت أحداً يمر بالرواق بين الساعة الواحدة والساعة الثانية بعد منتصف الليل، تذكر جيداً يا سيدي.

فقطب الكولونيل حاجبهِ ثم أطرق برأسه وصمت لحظة وقد ارتسمت على وجهه علامات التفكير العميق، ثم عاد فرفع رأسه ثم أجاب: أؤكد لك أنني لا أستطيع أن أذكر شيئاً لأنني لا أهتم بمراقبة الناس. ولكن مهلاً... أذكر أنني رأيت سيدة.

- رأيت سيدة في مستقبل العمر؟

- لم أرَ وجهها ولكنني لاحظت مرورها وشممت رائحة.

- رائحة عطرية؟ ما نوعها؟

- لا أدري على وجه التحديد، لكنها كانت رائحة قوية من النوع الذي يصل إلى الأنف على بعد مئة متر، كذلك لا أستطيع أن أحدّد بالضبط الوقت الذي رأيْتُها فيه؛ فهناك كما تعلم بعض الأشياء يراها الإنسان ولا يلاحظها، أو بمعنى آخر يراها ولا يلتقي إليها بالاً. لقد رأيتُ هذه السيدة، ولكنني لا أذكر هل كان ذلك في المساء أم بعد منتصف الليل. لا، لقد تذكرت الآن أنني رأيْتُها بعد أن غادر القطار محطة فنكوفكي.

- وما الذي يجعلك تجزم بذلك؟

- لقد كان الموضوع الذي تناوله الحديث بيني وبين السيد ماكوين هو مشروع السنوات الخمس في روسيا السوفيتية، وأتذكر

أنّ مرور هذه السيدة ووصول تلك الرائحة الطيبة إلى أنفي في تلك اللحظة لفتا نظري إلى مركز النساء في روسيا السوفيتية، فدار الحديث بيني وبين ماكوين في هذا الموضوع.

فسأله بوارو: ألا تستطيع أن تحدد الوقت بالضبط؟

- لا، ولكنني أستطيع أن أذكر لك أن ذلك كان في نصف الساعة الأخيرة قبل انصرافي من غرفة ماكوين.

- حسناً، والآن حدثني يا سيدي الكولونيل، هل سبق لك أن سافرت إلى أمريكا؟

- لا.

- هل عرفت فيما مضى من حياتك شخصاً يدعى الكولونيل آرمسترونغ؟

- آرمسترونغ؟ لقد عرفت اثنين أو ثلاثة يحملون اسم آرمسترونغ، عرفت مثلاً شلبي آرمسترونغ الذي قُتل في معركة السوم.

- أنا أعني الكولونيل آرمسترونغ الذي تزوج سيدة أمريكية وخطف بعض الأشقياء ابنته وفتكوا بها.

- أتذكر أنني قرأت عن حادث من هذا القبيل. لقد كان حادثاً مخيفاً، وقد سمعتُ عن هذا الكولونيل ولكنني لم أقابله، وكان المعلوم عنه أنه رجل دمّ الخلق محبوب من أصدقائه.

- الشخص الذي قُتل في هذا القطار ليلة أمس هو بعينه المجرم الذي اختطف ابنة الكولونيل آرمسترونغ وفتك بها.

فقطب أربنتوت حاجبيه ثم قال: إذن فقد نال هذا الشقي
جزاءه! رغم أنني كنت أفضل أن تناله يد العدالة فيُشَنَّق أو يُعَدَم
على الكرسي الكهربائي.

- حسناً يا سيدي الكولونيل، شكراً لك، وأعتقد أنه لم يُعد
يوجد ما يستوجب إلقاء أسئلة أخرى عليك. ولكن أخبرني، ألا
تذكر أيّ حادث أو أية ظاهرة لفتت انتباهك أمس؟

ففكر الكولونيل طويلاً ثم أجاب: الواقع أنني لاحظتُ
ملاحظة قد تكون تافهة، ولكنها لفتت انتباهي وسأذكرها لك
لعلك تجد فيها ما يفيدك.

- ما هي؟

- عندما عدت إلى غرفتي بعد الحديث الذي دار بيني
وبين السيد ماكوين لاحظت أن الغرفة المجاورة لي (أعني الغرفة
الآخيرة)...

- تعني الغرفة رقم ١٦؟

- نعم، لاحظت أن بابها مفتوح قليلاً ورأيت رأساً قد أطل
منها، فلم أكد أقترّب منها حتى فزع صاحب الرأس وتراجع بسرعة
ثم أغلق الباب في الحال.

- ثم ماذا؟

- لا شيء أكثر من ذلك، فالمسألة تافهة كما قلتُ لك، وقد
ذكرتها لأريح ضميري.

- هل تدخن سيجاراً يا كولونيل؟

- بل أدخّن غليوناً.

- هذا جيد، أشكرك.

ثم انصرف ، وبقي بوارو في مكانه يفكّر ثم قال : عرفنا منه أنه يدخن غليوناً ، وقد وجدنا في غرفة راتشيت فرشاة لتنظيف الغليون مع أن راتشيت نفسه يدخن لفافات التبغ.

- هل تعتقد أن...-

- هذا هو الشاهد الوحيد الذي اعترف بأنه يدخن غليوناً ، وهو كذلك الشاهد الوحيد الذي قال إنه يعلم شيئاً عن الكولونيل آرمسترونغ ، ومن المؤكّد أنه كان يعرفه معرفة وثيقة لكنه يتجنب التصريح بهذه الحقيقة.

- هل يمكن أن يكون هو الذي...؟

- لا ، هذا مستحيل ، مستحيل أن يُقدّم شخص محترم على قتل عدوه بهذه الطريقة الوحشية ؛ فتلّك الجريمة التي وقعت في هذا القطار لها طابع معيّن لكنه ليس طابع أربتنوت.

* * *

الفصل السابع عشر

استدعى بوارو آخر ركاب الدرجة الأولى ، وهو رجل أمريكي يُدعى هاردمان ، فأقبل هذا الرجل وهو باسم الثغر فسأل بوارو عما يريد ، فقال له هذا الأخير : لعلك تعلم أن جريمة ارتكبت في هذه القطار يا سيدي ، وأن الضرورة تقضي باستجواب جميع المسافرين .

- هذا طبيعي .

فألقي بوارو نظرة سريعة على جواز سفر الرجل ثم قال له : أنت تُدعي بتمان هاردمان ، أمريكي الجنسية في الحادية والأربعين من العمر ، ومهنتك مندوب متنقل لبيع الآلات الكاتبة ، أليس كذلك؟

- بلى ، أنا كما ذكرت .

- أكنت تنوي السفر إلى باريس؟

- نعم .

- لماذا؟

- لأسباب تتعلق بأعماله.
- أتسافر في مركبات الدرجة الأولى دائماً؟
- نعم يا سيدي؛ فالشركة التي أعمل لحسابها تدفع جميع النفقات.
- والآن لتحدث في موضوع الجريمة التي ارتكبت أمس.
- هل لديك ما تقوله فيها يا سيد هاردمان؟
- عفواً أيها السادة، هل تسمحون لي أن أسألكم من أنتم؟
- وبأية صفة تستجوبون المسافرين؟
- فأجاب بوارو: هذا السيد بوك مدير شركة عربات النوم، وهذا هو الطبيب الذي فحص جثة القتيل.
- وأنت؟
- أنا بوارو الشرطي السري، وقد كلفني مدير شركة عربات النوم بالتحقيق في الجريمة التي حدثت في إحدى عربات هذا القطار.
- لقد سمعتُ عنك يا سيد بوارو، وأظن أنني أستطيع أن أتحدث إليك بكل صراحة.
- فأجاب بوارو: وأنا أنصحك بأن تكون صريحاً؛ فالإنكار والمداراة لن يفيداك.
- أوكد لك أنني لا أعرف شيئاً يمكن أن يفيدك في التحقيق، ومما يحزنني ويؤلمني حقاً أنني لا أعرف شيئاً في الوقت الذي كان يجب عليّ أن أعرف فيه كل شيء.

- أرجو أن توضح كل ما تقول يا سيد هاردمان.

فلم يجب هاردمان ولكنه وضع يده في جيبه فلاحظ بوارو أن سحنة الرجل انقلبت فجأة، ثم ظهرت على وجهه علامات الرزانة وقال: إن جواز السفر الذي بين يديك جواز مزيف، أما اسمي الحقيقي فستجده على هذه البطاقة.

ثم وضع أمام بوارو بطاقة، فنهض السيد بوك واقفاً وانحنى فوق كتف بوارو فقرأ في البطاقة: «س. ب. هاردمان»، شرطي سري، نيويورك.

قال بوارو: هل أنت شرطي سري خاص يا سيد هاردمان، أعني هل تعمل لحسابك؟

- لا، بل أعمل لحساب شركة ماكنيل.

وكان بوارو قد سمع باسم هذه الشركة الأمريكية التي تقوم بأعمال الشرطة السرية فقال: أأستطيع أن تذكر لي لماذا تسافر متنكراً؟

- بكل تأكيد. لقد كنتُ أطارد اثنين من الأثقياء أوقعت بهما في هذا القطار، وقد انتهت مهمتي في إسطنبول حيث تمكنتُ من إلقاء القبض على الشقيين وتسليمهما إلى السلطات المحلية، وقبل أن أخطو خطوة أخرى بعثت ببرقية إلى شركة ماكنيل في طلب تعليمات جديدة فأصدرت الشركة أمرها بالعودة إلى نيويورك، وبينما كنت أتأهب للسفر جاءني هذا الخطاب.

ثم قدّم إلى بوارو خطاباً يحمل عنوان فندق توكتاليان، فقرأ بوارو في الخطاب ما يلي:

سيدي العزيز،

علمتُ أنك تعمل لحساب شركة ماكنيل المشهورة
في نيويورك، لذا أرجوكم التكرم بمقابلتي في غرفتي
بالفندق في الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم.

الإمضاء: راتشيت

قال السيد هاردمان: وذهبتُ إلى غرفة راتشيت في الوقت
المحدد، فأوضح الرجل لي موقفه بكل صراحة، ثم قدّم إليّ
رسالتي تهديد وصلته أخيراً وعرض عليّ أمراً، وهو أن أسافر معه
في هذا القطار إلى باريس لكي أسهر على سلامته، فاتفقتُ معه
على ذلك وسافرت في ذات القطار كما ترون، ولكن على الرغم
من يقظتي وسهري على سلامته فقد نالته يد أعدائه، وأنا حزين
جداً لذلك لأن الحادث في ذاته يؤثر على مركزي شخصياً.

- هل ذكر لك مهمتك بالتفصيل؟

- طبعاً؛ فقد طلب منّي أولاً أن أشغل الغرفة المجاورة
لغرفته، ولكن القطار للأسف كان غاصّاً بالمسافرين فلم أجد
مكاناً خالياً غير الغرفة رقم ١٦، مما زاد متاعبي لأنني كنت مضطراً
إلى مراقبة رواق المركبة ليلاً ونهاراً.

- ألدريك أية فكرة عن المجرم؟ أعني هل ذكر لك السيد
راتشيت شيئاً عن أوصاف الشخص الذي كان يتعقبه ويريد أن
يفتك به؟

- نعم، أستطيع أن أتصور شكله، فقد وصفه لي السيد
راتشيت.

وهنا أرهف الرجال الثلاثة آذانهم ليسمعوا أوصاف القاتل ،
ومضى هاردمان في حديثه فقال : لقد وصفه لي بأنه شخص قصير
القامة أسمر اللون له صوت كأصوات النساء . هذا ما ذكره السيد
راتشيت ، وقد قال لي أيضاً إنه لا يتوقع أن يحدث الاعتداء على
حياته في الليلة الأولى وإن هذا الاعتداء ربما حدث في الليلة
الثانية أو الثالثة .

فقال السيد بوك : لا بد أنه كان يعرف شيئاً من نوايا غريمه .

فقال بوارو : أجل ، لا بد أنه كان يعرف أكثر مما قال
لسكرتيه . ولكن أخبرني ، هل كنت تعرفه على حقيقته ؟

- من تعني ؟

- أعني راتشيت ، أكنت تعرفه على حقيقته ؟

- الحق أنني لا أستطيع أن أفهمك .

- راتشيت هو كاسيتي الذي اختطف ابنة الكولونيل
آرمسترونغ وفتك بها .

ففتح هاردمان فمه وعينه وحملق إلى محدثه بدهشة ثم
غمغم : إذا كان الأمر كما تقول وكان راتشيت هو كاسيتي حقاً
فليس من المدهش في شيء أن يكون هذا الشقي قد قُتل ، لأن
كثيرين يطلبون دمه ويريدون الانتقام منه ، بل المدهش حقاً أنه ظل
على قيد الحياة حتى الآن .

- هل تعرف بين الأشخاص الذين لعبوا دوراً في حادث ابنة
الكولونيل آرمسترونغ رجلاً قصير القامة أسمر الوجه يتكلم بصوت
كأصوات النساء ؟

- لا أستطيع أن أجد جواباً على هذا السؤال ، ولكنني أظن أن جميع الذين كان لهم اتصال بحادث الاختطاف قد ماتوا.

- لا تنسَ أن بين ضحايا هذا الحادث فتاة انتحرت بإلقاء نفسها من النافذة.

- صدقتَ ، وهي مسألة لها أهميتها ، وقد كانت هذه الفتاة أجنبية ، فلا يبعد أن يكون أحد أقاربها ممن لا نعرفهم ولم نقرأ عنهم في الصحف أراد أن يثار لها.

- حسناً ، أرجو أن تتم قصتك يا سيد هاردمان.

- ليست هناك قصة. كل ما أستطيع قوله هو أنني كنتُ أنام طوال النهار وأسهر طول الليل لحراسة راتشيت. وقد مضت الليلة الأولى دون أن يقع ما يثير ريبتي ، وكذلك مضت ليلة أمس ، فقد أمضيت الليل كله بجوار الباب ، فلم أرَ أي غريب يدخل المركبة أو يقترب من غرفة راتشيت.

- هل أنت واثق مما تقول يا سيد هاردمان؟

- كل الثقة ، وأستطيع أن أقسم بأنه لم يدخل أحد من الخارج إلى القطار وأنه لم يدخل أحد من ركاب الدرجة الثانية المركبة التي قُتل فيها راتشيت.

- هل كان في مقدورك أن ترى ملاحظ المركبة وأنت في غرفتك؟

- بكل تأكيد ؛ لأنه يقضي وقت الراحة في مقعد مجاور لباب غرفتي.

- وهل ترك مقعده بعد أن ترك القطار محطة فنكوفكي؟

- فنكوفكي هي آخر محطة وقف بها القطار، أليس كذلك؟
إذن فأصغ إليّ، سأحدثك بما فعله ملاحظ المركبة. لقد سمع
اثنين من المسافرين يقرعان الجرس ويدعوانه فلبّى الدعوة في
الحال، وكان ذلك على ما أظن بعد أن تعطل القطار بسبب تراكم
الثلوج.

فأطرق بوارو برأسه ثم أخذ يعبث بالأوراق التي بين يديه،
وأخيراً قدّم إلى هاردمان ورقة ثم قال له: أرجو أن تفضل فتكتب
اسمك وعنوانك على هذه الورقة.

فأطاع هاردمان ثم سأله بوارو: أيجاد في القطار من يؤيد
دعواك ويعاونك على إثبات شخصيتك؟

- في القطار؟ لا أظن أنه يوجد أحد فيما عدا ماكرين طبعاً؛
فأنا أعرفه حق المعرفة وشاهدته مراراً في مكتب والده بنيويورك،
ولكن ليس معنى ذلك أنه يستطيع أن يعرفني أو يتذكرني، وكل
ما يستطيع عمله لتستوثق من صدقي هو أن تبعث ببرقية إلى شركة
ماكينيل بنيويورك ثم تنتظر الرد، ولكن يجب أن تعلم أنني لم أذكر
غير الصدق ولم أذكر سوى الحقيقة.

وعندئذ أعطاه بوارو لفافة تبغ، وعندما همّ هاردمان بتناولها
سأله الشرطي السري البلجيكي: لعلك تفضّل تدخين الغليون.

فأجابه هاردمان على الفور: لا.

وتناول لفافة التبغ ثم غادر الغرفة.

* * *

الفصل الثامن عشر

غمز بوارو بإحدى عينيه ثم قال: والآن لنعمل على إرضاء السيد بوك ولنستجوب الإيطالي الذي يرتاب صديقنا العزيز فيه.

ثم أرسل في طلب ذلك الرجل الإيطالي (واسمه أنطونيو فوسكاريللي) فجاء في الحال، وقد اجتاز الغرفة بخطى سريعة. كان يجيد الفرنسية فراح بوارو يستجوبه بهذه اللغة فسأله: هل اسمك أنطونيو فوسكاريللي؟

- نعم يا سيدي.

- وأنت إيطالي الأصل، ولكنك تحمل الجنسية الأمريكية، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي؛ فقد وجدتُ أن ذلك خير لي وأصلح لعملي.

- وهل مهنتك وكيل متنقل لإحدى شركات السيارات؟

- نعم، وأستطيع أن أقول لك كيف أزاول عملي.

ثم مضى في كلامه، فراح يصف كيف وصل إلى أمريكا وكيف حصل على وظيفته ثم كيف يؤدي هذه الوظيفة، وغير هذا

وذاك مما لا يهم في القضية، فسأله بوارو: هل اتفق لك في أثناء إقامتك بأمريكا أن قابلت القاتل أو عرفته أو قرأت عنه؟

- لا، لم أقابله في أمريكا، ولكنني أحسست عندما رأيته في المطار أنه من أولئك الذين يُظهرون غير ما يُبتنون، فقد علمتني التجارب أن أقرأ طبائع الناس في وجوههم، وقد قرأت في وجه هذا الشخص أنه مجرم أثيم ذو نفس شريرة تتم عنها نظراته المخيفة.

- أنتَ على حق؛ فهذا الشخص مجرم خطير، واسمه الحقيقي هو كاسيتي.

- ماذا تقول؟! كاسيتي! ألم أقل لك إنني أقرأ طبائع الناس في وجوههم؟

- هل تذكر قضية آرمسترونغ؟

- لا أذكر التفاصيل، ولكنني أذكر اسم آرمسترونغ وأعلم أن الصحف رددت هذا الاسم بمناسبة حادث اختطاف... مهلاً، نعم، نعم، حادث اختطاف طفلة.

- هل تذكر أنك صادفت، أو عرفت أحد أفراد أسرة آرمسترونغ؟

- لا أظن، ومع ذلك فأنا أقابل في كل عام مئات الآلاف من الناس، وسأذكر لك عدد الصفقات التي أبرمتها في العام الماضي لتكون لديك فكرة عن الأشخاص الذين قابلتهم واستطعت...

فقاطعه بوارو: أرجو أن تحدثني عن تحركاتك منذ تناولت طعام العشاء أمس.

- بكل سرور. أنا أمضي في قاعة الطعام أطول وقت ممكن لأنني أجد لذة في سماع أحاديث المسافرين، ولا سيما أحاديث السيد هاردمان الأمريكي الذي يبيع أشرطة آلات الكتابة والذي جلس معي مراراً حول مائدة واحدة، وقد ذهبْتُ إلى غرفتي بعد أن تناولت العشاء فألفيتها خالية، ذلك لأن الخادم الإنكليزي الكريه لم يكن في فراشه؛ فأنا وذلك الخادم نقيم في غرفة واحدة بالدرجة الثانية، والحق أنني لا أطيق الإقامة مع ذلك الخادم؛ فهو يرفض الكلام ولا يقول غير كلمة نعم أو لا. عاد هذا الخادم من غرفة سيده فانتحى ناحية وأخذ يقرأ كتاباً، وبعد قليل جاء خادم المركبة فرتب فراشنا.

- الفراشان ٤ و ٥، أليس كذلك؟

- بلى، في المركبة الأخيرة، وفراشي هو رقم ٤، أعني الفراش العلوي، وقد تمددت فيه وأخذت أدخن وأقرأ، أما الشخص الإنكليزي (وأنت تعلم أنه خادم القتل) فقد أُصيب فجأةً بألم في أسنانه فاستلقى في فراشه وراح يئن ويتأوه، فلم أعبأ به واستغرقت في النوم، ولكنني كنت كلما استيقظت سمعته يئن.

- هل غادر فراشه ليلاً؟

- لا أظن أنه غادر فراشه؛ فلو أنه غادر الفراش لشعرت بذلك.

- ألم تسمعه يتحدث بما يدل على قلقه وخوفه على حياة سيده؟

- قلت لك إنه لم يكن يتكلم على الإطلاق، فقد كنت أنتزع منه كلمتي نعم أو لا.

- هل تدخن لفافات التبغ أم السيجار أم الغليون؟

- بل أدخن لفافات التبغ.

فقدّم إليه بوارو لفافة تناولها شاكرًا ثم قال: هل تريدون شيئاً
آخر؟ إلى اللقاء أيها السادة، وأرجو أن نتمكن من الخلاص من
كل هذه الثلوج في أقرب وقت؛ فأنا على موعد في ميلانو وأخشى
أن أصل بعد فوات الوقت.

* * *

الفصل التاسع عشر

قال بوارو: والآن فلنستجوب ماري دبنهام.

أقبلت ماري دبنهام في ثوب أسود رشيق فجلست أمام بوارو، ثم راحت تنقل بصرها بينه وبين السيد بوك وفي نظراتها معنى التساؤل، فسألها بوارو: هل اسمك الآنسة ماري هرميون دبنهام، وعمرك ٢٦ سنة؟

- نعم.

- إنكليزية؟

- نعم.

- هل تتكرمين بكتابة اسمك وعنوانك الدائم على هذه الورقة؟

فكتبت اسمها وعنوانها بخط دقيق واضح ثم سألها بوارو: والآن يا آنسة، هل لديك معلومات عن الجريمة التي ارتكبت في هذا القطار؟

- يؤسفني أن أقول لك إنني لا أعلم شيئاً يفيدك في التحقيق، فقد ذهبت إلى غرفتي ونمت في ساعة مبكرة.

- هل كانت تربطك بالقتيل روابط صداقة أو معرفة؟
- لقد رأيته للمرة الأولى عندما تناولنا طعام الغداء في هذه القاعة أمس.
- وما الأثر الذي تركه في نفسك؟
- لم ألقِ بالاً إليه.
- ألم يَتَبَّك شعور بأنه شخصية شريرة أثيمة؟
- ربما، فأنا لم أفكر في ذلك طويلاً. ولكنني أقول لك بصراحة إنك تضيع وقتك في محاولة لا طائل منها؛ فمعرفة شعوري نحوه لا تفيد بحال في معرفة القاتل.
- هل تعرفين حقيقة السيد راتشيت يا آنسة؟
- فأطرقت برأسها ثم أجابت: طبعاً، فقد أذاعت السيدة هوبار الحقيقة على جميع المسافرين.
- وما رأيك في حادث اختطاف طفلة الكولونيل آرمسترونغ؟
- كان حادثاً فظيماً!
- فنظر إليها بوارو عن كثب ثم سألها: أنتِ قادمة من بغداد على ما أعتقد يا آنسة، أليس كذلك؟
- بلى، أنا قادمة من بغداد.
- ماذا كنت تصنعين في بغداد؟
- كنت أعمل مربية.

- هل ستعودين إلى عملك بعد هذه الإجازة التي ستقضيها في لندن؟

- لا أعلم على وجه التحديد.

- ما رأيك في الأنسة أولسون التي تشغل فراشاً في غرفتك؟

- يلوح لي أنها مخلوقة طيبة القلب ساذجة.

- ما لون الوشاح الذي ترتديه؟

فنظرت إليه الفتاة بدهشة ولكنها أجابت: إنها ترتدي وشاحاً بني اللون مصنوعاً من الصوف الطبيعي.

- لقد لاحظت في الطريق بين حلب وإسطنبول أنك ترتدين وشاحاً أصفر اللون، أليس كذلك؟ أرجو ألا يكون في كلامي ما يخذش شعورك.

- لا، على الإطلاق.

- هل تقتنين وشاحاً آخر لم أره؟ وشاحاً أحمر اللون مثلاً.

- لا، فالوشاح الأحمر ليس وشاحي.

فانحنى بوارو إلى الأمام بحدة، وفي تلك اللحظة كان يبدو في جلسته أشبه بقط يتأهب للانقضاض على فأر، فسألها: وشاح من إذن؟

- لا أعلم، ولكن ماذا تعني؟

- لقد سألتك إن كنت تقتنين وشاحاً أحمر اللون، فلم تقولي: "لا أنا لا أقتني وشاحاً بهذا اللون"، بل قلتِ لا فالوشاح الأحمر

ليس وشاحي، ومعنى ذلك أنك تعلمين شيئاً عن الوشاح الأحمر وصاحبتة، فهل هو وشاح سيدة أخرى في هذا القطار؟

- نعم.

- من هي؟

- قلت لك إنني لا أعلم؛ فقد استيقظتُ في الساعة الخامسة من صباح اليوم وأنا أشعر أن القطار قد تعطل عن السير منذ مدة طويلة، ثم فتحت باب غرفتي فأرسلت بصري إلى الرواق لأرى هل وقف القطار في إحدى المحطات، وعندئذ شاهدت في نهاية الرواق سيدة ترتدي وشاحاً أحمر اللون.

- ألا تعرفين هذه السيدة؟ هل رأيت رأسها؟ ألا تذكرين إن كانت شقراء أو سمراء أو متقدمة في السن؟

- لا أعلم؛ فقد كانت تضع على رأسها قلنسوة تخفي شعرها.

- كيف كان قوامها؟

- كانت طويلة القامة نحيفة، ولكن ليس من السهل معرفة عمرها.

- والوشاح، ألم تكن عليه علامة مميزة؟

- كانت عليه صورة تين.

- صورة تين، هذا صحيح، هذا صحيح.

ثم أطرق برأسه وفكر لحظة ثم قال: شكراً لك يا آنسة، هذا كل ما أردت معرفته.

فنظرت إليه الفتاة بدهشة لأنها كانت تتوقع سيلاً من الأسئلة، لكنها عندما سمعته يقول ذلك نهضت في الحال ومشت نحو الباب، وهناك ترددت لحظة ثم عادت أدراجها وقالت تحدث بوارو: الأنسة السويدية، أعني الأنسة أولسون، أليس هذا اسمها؟ أقول إنها في أشد حالات القلق والخوف لأنك أفهمتها أنها آخر من رأى السيد راتشيت على قيد الحياة، لذا فهي تعتقد أنك ترتاب فيها، فهل أستطيع أن أخبرها بأنها مخطئة فيما ذهبت إليه؟

قالت ذلك وهي تبسم فسألها بوارو: كم كانت الساعة عندما ذهبت هذه السويدية إلى غرفة السيدة هوبار ودخلت غرفة راتشيت خطأ؟

- كان ذلك بعد منتصف الساعة الحادية عشرة بقليل.

- وهل غابت عن الغرفة طويلاً؟

- خمس دقائق لا أكثر.

فالتفت بوارو إلى الطبيب قسطنطين فسأله: هل يُحتمل أن تكون الجريمة قد ارتكبت قرابة منتصف الساعة الحادية عشرة.

- لا.

فقال بوارو محدثاً الأنسة دبنهام: إذن تستطيعين أن تطمئني صديقتك السويدية يا آنسة.

- شكراً لك.

وابتسمت ابتسامة عذبة ثم غادرت الغرفة.

* * *

الفصل العشرون

نظر السيد بوك بفضول إلى صديقه بوارو ثم قال: هل ترتاب فيها؟ لماذا؟ يُخيل إليّ أن هذه الفتاة الحسنة هي آخر من يفكر في ارتكاب جريمة بشعة كالتي نحن بصدددها.

فقال الطبيب: وأنا أوافقك على ذلك يا سيد بوك، فهي في الواقع فتاة جامدة العاطفة لا تستخدم الخنجر، ولكنها تلجأ إلى المحاكم في طلب القصاص.

فتنهد بوارو ثم قال: يجب أن تنزعا من ذهنيكما أن هذه الجريمة من الجرائم الفجائية. لقد قلت وأكرر القول إنها جريمة مدبرة بمهارة ودقة، أما عن سبب ارتياي في أن تكون الأنسة دبنهام هي التي ارتكبت الجريمة فهناك سببان يبرران هذه الريبة: أولهما أنني سمعتُ حديثاً دار بينها وبين الكولونيل أربنتوت على رصيف إحدى المحطات.

قال ذلك ثم ذكر لهما الحديث المقتضب العجيب الذي سمعه في أثناء رحلته من حلب، ولما فرغ من حديثه قال السيد بوك: حقاً؟! هذا حديث عجيب يتطلب الإيضاح، وإذا صحت ظنونك كانت هي قاتلة راتشيت بمعونة صديقها الكولونيل بلا شك.

فأطرق بوارو برأسه ثم قال: ومع ذلك فالحقائق الملموسة لا تؤيد هذا الرأي، لأنه لو صحَّ أن الأنسة دبنهام والكولونيل أربتنوت قد ارتكبا هذه الجريمة لكان قد التمس كل واحد منهما مخرجاً لصاحبه، بمعنى أننا لو سألنا الكولونيل أين كان عند ارتكاب الجريمة لزعم أنه كان يتبادل الحديث مع الأنسة دبنهام في غرفتها، ولوافقته هي على هذه القول. لكننا نرى غير ذلك الآن؛ فالآنسة دبنهام تجد في شهادة الفتاة السويدية التي تقيم معها في غرفتها ما يقضي عنها كل شبهة، أما الكولونيل أربتنوت فيجد في شهادة ماكوين ما يثبت أنه أبعد الناس صلة بهذه الجريمة.

فقال بوك: ذكرت أن هناك سبيين يحملانك على إساءة الظن بالآنسة دبنهام، وقد أوردت السبب الأول.

فابتسم بوارو وأجاب: آه، صدقت، والسبب الثاني نفسيّ بحث، فأنا واثق أن عقلاً جباراً رزيناً قد دبّر هذه الجريمة، وقد وجدتُ في الأنسة دبنهام جميع الصفات التي يجب أن يوصف بها مدبّر الجريمة.

ثم تناول جواز السفر الأخير فقال: والآن لنستجوب الأنسة هلدغارد شميد، فهي آخر من بقي من المسافرين بلا استجواب.

وأقبلت هلدغارد شميد فوقفت بين يدي بوارو باحترام، فطلب منها أن تجلس فأطاعت وجلست أمامه مكتوفة الساعدين، وكان يظهر عليها أنها مخلوقة هادئة وادعة محترمة، ولكن حظها من الذكاء قليل. لاحظ بوارو عليها كل ذلك فلجأ في استجوابها إلى طريقة جديدة فأبدى معها من اللطف والكياسة ما طمأنها، فطلب منها أن تكتب اسمها وعنوانها ففعلت، ثم دار الحديث بينه وبينها بالألمانية فقال لها: بودّنا أن نعرف كل ما يمكن معرفته عمّا

حدث ليلة أمس ، ونحن نعلم طبعاً أنك لا تستطيعين أن تقدّمي إلينا معلومات هامة تتصل بالجريمة ذاتها ، ولكن ربما تكونين قد رأيت أو سمعت شيئاً يلقي بعض الضوء على تلك الجريمة الغامضة التي ارتكبت في هذا القطار ليلة أمس . هل فهمتِ ماذا أعني؟

والظاهر أنها لم تفهم ماذا كان يعني لأنها ظلت تنظر إليه ببلاهة ، حتى إذا فرغ من كلامه قالت له : أنا لا أعرف شيئاً يا سيدي .

- أصغي إليّ . هل تعرفين مثلاً إن كانت سيدتك قد أرسلت في طلبك ليلة أمس؟

- نعم ، لقد أرسلت في طلبي .

- هل تذكرين متى كان ذلك؟

- لا يا سيدي ، لا أذكر ، فقد كنتُ نائمة حين أتى الخادم يدعوني .

- هل اعتادت سيدتك أن تدعوك ليلاً؟

- نعم ، فهي تنام نوماً مضطرباً .

- عندما دعاك خادم المركبة لمقابلة سيدتك هل ارتديت وشاحاً؟

- لا يا سيدي ، لقد ارتديت ثيابي كلها في الحال ؛ فأنا لا أحب أن أظهر أمامها بوشاحي .

- وذلك على الرغم من كونه وشاحاً فاخراً جميلاً ذا لون أحمر .

فحملت إلى وجهه قائلة : لا يا سيدي ، بل لونه أزرق !

- آه، لقد ذكرتُ ذلك على سبيل الدعابة فقط، ولكن أتمني حديثك. تقولين إنك لبيت دعوة سيدتك الأميرة في الحال، فماذا فعلت في غرفتها؟

- أعطتني كتاباً وطلبت من أن أقرأ فيه بصوت مرتفع ففعلتُ، ومضيت أقرأ وسيدتي الأميرة تستمع حتى غلبها النعاس، فأمرتني بالانصراف فأطعت وعدت إلى غرفتي.

- هل تذكرين كم كانت الساعة؟

- لا يا سيدي.

- حسناً، كم ساعة قضيت في غرفة الأميرة؟

- نصف ساعة.

- ألم تقابلي أحداً في رواق المركبة في أثناء عودتك إلى الغرفة؟

- لم أقابل أحداً.

- ألم تقابلي سيدة تلبس وشاحاً أحمر تزيّنه صورة تنين كبير مثلاً؟

- أنا لم أرَ في رواق المركبة غير ملاحظ عربة النوم.

- وماذا كان يفعل الملاحظ؟

- لقد رأيته يغادر إحدى الغرف.

فانحنى السيد بوك إلى الأمام وسأل بحدة: ماذا؟! كان يغادر إحدى الغرف؟ أية غرفة؟

ظهرت على وجه الوصيفة علامات الذعر ، فنظر بوارو إلى صديقه نظرة عتاب ثم قال : طبعي أن يلبي الملاحظ نداء المسافرين وأن يدخل غرفهم ، ولكن هل تذكرين يا آنسة من أية غرفة خرج الملاحظ ؟

- لقد رأيته يغادر غرفة في وسط المركبة ، غرفة تفصل بينها وبين غرفة الأميرة غرفتان أو ثلاث.

- أرجو أن تتذكري الغرفة بالضبط.

- لا أذكر يا سيدي ، وكل ما أستطيع قوله أنني رأيت الملاحظ يغادر تلك الغرفة مهرولاً ، حتى إنه اصطدم بي ، ولكنه اعتذر ومضى في سبيله.

- إلى أين ؟

- إلى غرفة الطعام ، وفي تلك اللحظة سمعت جرساً يدق ، ولكنني لا أظن أن الملاحظ توجه إلى غرفة المسافر الذي دق الجرس.

وكفّت عن الكلام لحظة ثم عادت فأردفت : الواقع أنني لم أفهم كيف...

فقاطعها بوارو وقال يطمئنها : نحن لا نوجه التهمة إلى شخص بعينه ، ولكن المسألة فقط هي أنه لا بد وأن يكون الملاحظ المسكين قد تعب كثيراً ليلة أمس ، فقد كان عليه أن يوقظك ثم كان عليه أن يلبي نداء المسافرين الذين يقرعون الأجراس.

فقالت الفتاة الألمانية : الملاحظ الذي أيقظني ليس هو الملاحظ الذي اصطدم بي في رواق المركبة.

- ملاحظ آخر! هل رأيت هذا الملاحظ الآخر من قبل؟
- لا يا سيدي.
- هل تظنين أنك تستطيعين معرفته إذا وقع بصرك عليه مرة ثانية؟
- أظن ذلك يا سيدي.
- وهنا همس بوارو بكلمة في أذن السيد بوك فنهض ثم سار نحو الباب فأصدر أمراً، وقد واصل بوارو استجواب الوصيصة الألمانية فسألها: هل سافرت إلى أمريكا يا آنسة شميد؟
- لا يا سيدي، لم أسافر إليها أبداً، وقد قرأت عنها أنها بلاد جميلة.
- هل علمت شيئاً عن حقيقة الرجل الذي قُتل في هذا القطار؟ وهل علمت أنه لعب دوراً هاماً في حادث اختطاف طفلة؟
- نعم، سمعتُ شيئاً عن ذلك؛ سمعت أنه اختطف طفلة وقتلها، وتلك حقاً جريمة مفزعة، وقد نال جزاءه.
- وبعد أن ساد السكون لحظة وضع بوارو يده في جيبه فأخرج منديلاً صغيراً ثم سأل الوصيصة الألمانية: هل هذا منديلك يا آنسة شميد؟
- تناولت المنديل وفحصته ثم صمتت لحظة ثم قالت: لا يا سيدي، هذا ليس منديلي.
- لقد رأيتُ في أحد أركانه حرف «ه» فظننت أنه منديلك.
- لا يا سيدي، فهذا منديل فاخر، ولا بد أنه لسيدة ثرية لأنه

مطرّز باليد، وأكبر ظنّي أنه مستورد من باريس.

- إذن فهو ليس منديلك، وأنت لا تعرفين صاحبتة، أليس كذلك؟

- أنا؟ لا يا سيدي، أنا لا أعرف صاحبتة.

قالت ذلك بعد تردد قليل لم يلاحظه غير بوارو، عندئذ عاد السيد بوك وهمس بكلام في أذن بوارو، فأطرق الأخير برأسه ثم قال محدثاً المرأة الألمانية: سيحضر الملاحظون الثلاثة الآن، فهل تتكرمين بإرشادي إلى الملاحظ الذي اصطدم بك أمس في أثناء خروجك من حجرة سيدتك الأميرة؟

ثم دخل الملاحظون الثلاثة، وهم بيير ميشيل وملاحظ مركبة أثينا ثم ملاحظ مركبة بوخارست، فنظرت إليهم الأنسة شميد الواحد بعد الآخر ثم هزّت رأسها في الحال وقالت: الرجل الذي اصطدم بي أمس ليس بين هؤلاء يا سيدي.

فدهش بوارو وقال: ولكن ليس بالقطار إلا هؤلاء، فلا بد أنك مخطئة.

- لا يا سيدي، أنا واثقة مما أقول؛ فالثلاثة طوال القامة، أما الرجل الذي رأيته في رواق المركبة أمس فقد كان قصير القامة أسمر الوجه له شارب قصير، وعندما اصطدم بي قال: "أرجو المعذرة يا سيدتي" فلاحظت أنه يتكلم بصوت كأصوات النساء.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

تبادل الرجال الثلاثة، بوارو وبوك والطبيب، نظرة ذات معنى، ثم غمغم السيد بوك: رجل قصير القامة أسمر الوجه يتكلم بصوت كأصوات النساء!

ثم انصرف هلدغارد شميد والملاحظون الثلاثة، ونظر السيد بوك إلى صديقه بوارو نظرة تنم عن اليأس والحيرة ثم قال: أنا لا أستطيع أن أفهم شيئاً، أجل، لا أستطيع أن أفهم شيئاً على الإطلاق. لقد كان غريم راتشيت في هذا القطار، هذا أمر لا شك فيه بعد أن سمعتُ شهادة هذه الوصيعة الألمانية، ولكن أين هو الآن؟! وكيف ركب القطار؟! وكيف تلاشى في الهواء بهذه السرعة؟! إن رأسي يدور. أرجو أن تقول لي شيئاً يا صديقي، أتوسل إليك أن تقول شيئاً وأن توضح لي كيف أمكن أن يصبح المستحيل ممكناً؟!

فقال بوارو: هذا كلام طيب. المستحيل لا يصبح ممكناً بحال من الأحوال؛ فلم يكن ثمة شيء مستحيل، وما حدث ليلة أمس ليس من المستحيلات.

- إذن فسّر لي بسرعة ما حدث في هذا القطار ليلة أمس.

- أنا لستُ ساحراً يا عزيزي، أنا مثلك رجل عادي يشعر بالحيرة أمام هذه الخفايا والألغاز بمثل ما تشعر، وربما أكثر ممّا تشعر، ومع ذلك فأنا أعتقد أننا نقرب من الحقيقة بخطوات واسعة.

ثم سعل بوارو وصمت لحظة ثم مضى في حديثه قائلاً: هلّم بنا نستعرض الحادث كما يبدو لنا الآن. من الحقائق الثابتة أن راتشيت أو كاسيتي أُصيب أمس باثنتي عشرة طعنة فأسلم الروح، هذه الحقيقة الأولى، أليس كذلك؟

فأجاب السيد بوك بتهكم: أنا أعترف معك بهذه الحقيقة الأولى.

فلم يعبأ بوارو بتهكم صاحبه ثم تابع: والآن سأتجاوز عن بعض ظواهر خاصّة جرت حولها مناقشة بيني وبين الدكتور قسطنطين، ولكنني سأعود إلى هذه الظواهر بعد قليل. لقد ذكرتُ لكم الحقيقة الأولى الآن، أما الحقيقة الثانية الهامة فهي في اعتقادي الوقت الذي وقعت فيه الجريمة، فأمامنا الآن ثلاثة احتمالات خاصة بالوقت الذي وقعت فيه الجريمة: أولاً، أن تكون الجريمة ارتُكبت في الساعة الواحدة والرّبع بعد منتصف الليل، والأدلة على ذلك ساعة القتل وشهادة السيدة هوبار والوصيفة الألمانية هلدغارد شميد وتقرير الدكتور قسطنطين. ثانياً، أن تكون الجريمة ارتُكبت بعد هذا الوقت، فتكون الساعة دليلاً زائفاً علينا للتغيير بنا. ثالثاً، أن تكون الجريمة ارتُكبت قبل ذلك الوقت، ويكون دليل الساعة ملفّقاً للسبب المذكور آنفاً. فإذا نحن سلّمنا بالاحتمال الأول، والأدلة عليه كثيرة، وجب علينا أن نسلّم بحقائق أخرى معينة تنهض عليه:

ثم تنحنح بوارو قبل أن يكمل: أولاً: إذا كانت الجريمة قد ارتكبت في الساعة الواحدة والرّبع بعد منتصف الليل حقاً تَعيّن علينا أن نسلّم بأن القاتل لم يستطع مغادرة القطار حتى الآن لأن القطار تعطل في الطريق، ومتى تقرر ذلك وجب علينا أن نتساءل، أين يوجد المجرم الآن؟ ومن هو؟ لقد علمنا أوصافه للمرة الأولى من الشخص الأمريكي المدعوّ هاردمان الذي قال إن المجرم شخص قصير القامة أسمر الوجه يتكلم بصوت كأصوات النساء، وإن السيد راتشيت طلب منه أن يراقب قدومه.

ثم صمت برهة يستجمع أفكاره قبل أن يستطرد قائلاً: هذا ما قاله هاردمان، وليس لدينا في الواقع ما يؤيّد صدق هذا القول، فضلاً عن أن شخصية هاردمان نفسه لا تزال موضع الريبة والشك لأننا لا نملك الوسائل للتحقّق ممّا إذا كان شرطياً سرياً كما يزعم أم لا، بل نحن لا نملك الوسائل المادية للتحقّق من أي شيء، وكل عملنا قائم على الحدس والتخمين والاستنتاج الآن، فأنا أسأل نفسي: هل يجب أن نصدق ما يزعمه هاردمان عن نفسه؟ ورأيي الخاص هو أنه بإمكاننا أن نصدق أقوال هذا الرجل، فهاردمان يحمل جواز سفر مزيّفاً، وهذه حقيقة تسيء إلى مركزه، لأن أول عمل يقوم به المحققون في مثل هذه الحال هو حجزه والاتصال بنيويورك للتحقق من شخصيته.

- أنت إذن تعتقد بأنه فوق الشبهات؟

- لا، أنا لم أقل ذلك، بل قلت إن الرجل لم يكذب حين قال لنا إنه شرطيّ سريّ خاص يعمل لحساب إحدى الشركات، ولا أستطيع أن أقطع فيه برأي، فمن يدري؟ ربما كان له غرض خاص في قتل راتشيت؟ أما قوله بأن راتشيت كلّفه بمهمة حراسته

فأمر غير قابل للشك، لأن هلدغارد شميد قد وصفت القاتل كما وصفه راتشيت نفسه على لسان هاردمان، وإذا أردنا برهاناً على صحة أقوال هاردمان وهدلغارد شميد معاً فسنجد هذا البرهان في الزر الذي عثرنا عليه بغرفة السيدة هوبار.

فقال السيد بوك: كل هذا حسن، إذن فالقاتل هو ذلك الشخص القصير القامة الذي وصفه هاردمان ورأته هلدغارد شميد، ولكن أين ذهب هذا القاتل بعد أن ارتكب جريمته؟!

فهز بوارو رأسه وقال: أنت تضع العربة أمام الجواد، ذلك لأنني قبل أن أبحث أين اختفى ذلك الشخص يجب أن أسأل: هل لهذا الشخص وجود على الإطلاق؟ لأن هذا الشخص إذا لم يكن خيالياً، أعني لم يكن من ابتكارات هاردمان وهدلغارد شميد، كان من السهل العثور عليه، والدليل الوحيد القائم على وجود هذا الشخص هو شهادة هلدغارد شميد.

- ولكن أين هذا الشخص الآن؟

- يوجد جوابان لهذا السؤال: فإما أن يكون هذا الشخص لا يزال مختبئاً بالقطار في مخبأً عجيب لا نعرف مكانه، أو يكون قد تنكر حتى غاب عن راتشيت معرفته بين المسافرين، وفي هذه الحالة الأخيرة يكون القاتل لا يزال موجوداً في القطار بين المسافرين، فمن هو؟! نحن نعلم عنه أنه قصير القامة، فإذا استعرضنا أمامنا جميع المسافرين وجدناهم جميعاً طوال القامة ما عدا خادم راتشيت نفسه، ولكن هناك ملاحظة جديرة بالذكر.

ثم أخذ نفساً عميقاً قبل أن يستطرد: لقد قيل عن القاتل إنه يتكلم بصوت كأصوات النساء، ومن هذا نستنتج أحد أمرين:

إما أن يكون القاتل رجلاً متنكراً في زي امرأة، أو أن تكون امرأة متنكرة في زي رجل.

- إذا كان ذلك حقاً لوجب أن يلفت راتشيت نظر هاردمان إلى هذه الحقيقة، فقد قال له إن غريمه رجل ولم يقل إنه امرأة في زي رجل.

- يُحتمل أن تكون هذه المرأة قد اعتدت على راتشيت قبل ذلك وهي مرتدية ملابس الرجال، فظن راتشيت أنها ستعيد الكرة وهي بملابس الرجال أيضاً لأنه قال لهاردمان إن غريمه رجل، ولكنه أضاف إلى ذلك قوله إن هذا الغريم يتكلم بصوت كأصوات النساء.

ثم تحدث بإسهاب عن ملاحظاته وملاحظات الدكتور قسطنطين على إصابة القتيل ودلالاتها فهتف السيد بوك: يا إلهي! إذن يوجد بالقطار قاتلان!

فقال بوارو: أجل، أحدهما رجل والآخر امرأة، وقد شوهد الاثنان في القطار ليلة أمس، شوهد الرجل مرتدياً ثياب موظف بشركة عربات النوم، وكانت أوصافه تنطبق تماماً على الأوصاف التي ذكرها السيد هاردمان عن لسان القتيل، والذين شاهدوه هم هلدغارد شميد وصيفة الأميرة الروسية والكولونيل أربتنوت والسيد ماكوين سكرتير القتيل، أما المرأة فهي طويلة القامة نحيفة، وقد شوهدت مرتدية وشاحاً أحمر اللون، والذين رأوها هم بيير ميشيل ملاحظ عربة النوم والأنسة ماري دبنهام وماكوين قد شاهدها بدوره، أما الكولونيل أربتنوت فقد امتلأ أنفه بالرائحة العطرية التي كانت تنبعث من ثياب تلك المرأة، ولكن من تلك

المرأة؟ لم نجد بالقطار سيدة واحدة تملك وشاحاً أحمر! هل اختفت هذه المرأة؟!

نظر بوارو إلى السيد بوك قبل أن يستطرد قائلاً: المسألة الآن هل كانت هذه المرأة هي نفس الشخص الذي شوهد مرتدياً ثياب موظف شركة عربات النوم أم أنها شخصية مستقلة؟ وإذا كانت شخصية مستقلة بذاتها، فأين ذهب الاثنان؟ وأين أخفي الوشاح الأحمر وثوب موظف عربات النوم؟

وهنا وثب السيد بوك عن مقعده فقال بحدة: من السهل جداً التحقق من هذه النقطة، وذلك بأن نشرع في الحال في تفتيش أمتعة المسافرين جميعاً بغير استثناء.

وقبل أن يتم السيد بوك كلامه سمع الرجال الثلاثة ضجة شديدة خارج المركبة، ثم فُتح الباب فدخلت السيدة هوبار وهي تصيح: هذا مريع، هذا مخيف! لقد وجدتُ في حقيبتي خنجراً هائلاً ملوثاً بالدم!

وتعثرت في مشيتها ثم سقطت مغشياً عليها بين ذراعي السيد بوك.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

حمل السيد بوك السيدة الأمريكية ومددها على المائدة ثم انطلق مسرعاً في أثر بوارو الذي وثب إلى الخارج في الحال، أما الدكتور قسطنطين فكان اهتمامه بالقضية وفضوله إلى معرفة كل جديد فيها أعظم من اهتمامه بالسيدة هوبار، فدعا أحد الخدم وأرشده إلى ما يجب عمله لإفاقة السيدة، ثم انطلق بدوره في أثر زميله.

وصل الرجال الثلاثة إلى غرفة السيدة هوبار، وهناك وجدوا المسافرين قد احتشدوا أمام الباب وأحد الخدم يصدّهم برفق محاولاً منعهم من اقتحام الغرفة، فشقّ بوارو وبوك والطبيب اليوناني طريقهم بين المسافرين ودخلوا الغرفة، وهناك أجال بوارو حوله نظره سريعة فرأى حقيبة من المطاط أمام الباب المؤدي إلى غرفة القتل، ووجد بجانب الحقيبة خنجراً ذا نصل طويل.

كان خنجراً رخيصاً من النوع الذي يُباع في أسواق الشرق، وكان نصله ملوّثاً ببقع تشبه الصدأ، فتناوله بوارو بخفة وغمغم: لا مجال للشك، هذا هو الخنجر الذي كنا نبحث عنه. ما رأيك يا دكتور؟

فتناول الطبيب الخنجر وراح يفحصه باحتراس فقال له بوارو:

لا داعي للخطر لأن الخنجر لا يحمل من بصمات أصابع غير بصمات السيدة هوبار.

انتهى الطبيب من فحص الخنجر بسرعة ثم قال: نعم، هذا هو الخنجر الذي ارتُكبت به الجريمة، والذي أحدث جميع الإصابات التي رأيناها بجثة القتيل، وهو من الخناجر التي تُصنع في الشرق وتُباع في أسواق إسطنبول بثمن زهيد.

نظر بوارو إلى الباب الذي يفصل بين غرفتي السيدة هوبار وراثيت، فرأى مزلاجاً فحركه وحاول أن يفتح الباب، لكنه لم يفتح فقال الطبيب: لا تنسَ أننا أغلقنا الباب من الجانب الآخر.

- صدقت.

وتعصّن جبين بوارو فخيل للناظر أنه مستغرق في تفكير عميق، فقال السيد بوك: من السهل جداً تحليل وجود الخنجر في هذه الحقيقة، فقد دخل المجرم من الغرفة المجاورة إلى هذه الغرفة ماراً من هذا الباب، ولا بد أنه وهو يتلمس الباب في الظلام وجد هذه الحقيقة معلقة على المزلاج، فخطر له في الحال أن يتخلص من الأداة الملوثة بالدماء التي ارتكب بها جريمته، فألقى الخنجر في الحقيقة ثم تسلل من الباب الثاني إلى الرواق.

فقال بوارو: أجل، هذا ما حدث بالضبط.

ولكن علامات الحيرة ظلت مرتسمة على وجهه ونظراته فقال له السيد بوك: ماذا يزعجك؟ يبدو لي أنك غير مطمئن إلى هذا الإيضاح المعقول.

فألقي بوارو عليه نظرة سريعة ثم غمغم: هذا صحيح، ولكن

الأمر بسيط على كل حال.

وفي تلك اللحظة دخل الموظف الذي كان واقفاً بالباب لمنع المسافرين من اقتحام الغرفة بدافع الفضول الذي أثاره في نفوسهم صراخ السيدة هوبار فقال: السيدة الأمريكية أقبلت وتريد دخول غرفتها.

هنا أحسّ الدكتور قسطنطين بالخجل لأنه ترك السيدة في غشيتها ولم يقدم إليها شيئاً من الإسعافات الضرورية، وعندما دخلت قال لها بوارو: هل تسمحين لي بتفتيش حقائبك يا سيدتي؟

- لماذا؟

- لقد قررنا تفتيش حقائب المسافرين جميعاً، وأنت ولا شك يسرّك ألا تجدي في إحدى حقائبك أثراً مخيفاً آخر من آثار القاتل، لذا سنفتش أمتعتك ونوفر عليك أية مفاجأة مزعجة أخرى.

- صدقت، فأنا أعتقد أنني سأجنّ إذا وجدتُ بين أمتعتي أيّ أثر آخر من آثار القاتل، وسأجنّ إذا اضطرت لقضاء ليلة ثانية في هذه الغرفة.

وتم تفتيش أمتعة السيدة هوبار بسرعة لأن حقائبها كانت قليلة، فهي عبارة عن صندوق كبير وحقبة ضخمة وصندوق صغير من الورق المقوّى لصيانة القبعات، ولم يجد بوارو بين الأمتعة ما يشير للشبهات، كما أصدر السيد بوك أمره بنقل السيدة هوبار إلى الغرفة رقم ١٢.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

شكر بوارو السيدة هوبار ثم حيّاها وانصرف فتبعه السيد بوك والدكتور قسطنطين. وعندما انفرد الثلاثة خارج غرفة السيدة هوبار قال السيد بوك: لقد انتهينا من هذه السيدة بسهولة، والآن يجب أن نفتش أمتعة المسافرين الآخرين، ولكن ترى بمن نبدأ؟

فأجاب بوارو: المسألة غاية في البساطة، يجب أن نفتش الغرف بالترتيب، ومعنى ذلك أننا نبدأ بالغرفة رقم ١٦، أي غرفة السيد هاردمان.

وقد وجدوا هاردمان في غرفته يدخن لفافة تبغ، فنهض الرجل لاستقبالهم ودعاهم إلى تناول القهوة، فشكره السيد بوك ثم أوضح له الغرض من الزيارة، وفتّش الرجال الثلاثة حقيبتَي السيد هاردمان فلم يجدوا بهما شيئاً غير عادي، ومن ثم انتقلوا إلى غرفة الكولونيل أربنتوت، فوجدوه يدخن غليون، فحدّثه بوارو عن غرضه، فلم يُبدِ الرجل شيئاً من الالتماع ولكنه قال: أنا لا أحمل معي غير هاتين الحقيقتين، أما باقي الأمتعة فقد أرسلت عن طريق البحر.

وكان الكولونيل كسائر رجال الجيش دقيقاً في حزم أمتعته،

فلم يستغرق تفتيش الحقييتين أكثر من دقائق معدودة. قد عثر بوارو في إحدى الحقييتين على حزمة من الفرشاة التي تُستعمل لتنظيف الغليون، فقال بوارو محدثاً الكولونيل: ألا تستعمل غير هذا النوع في تنظيف غليونك؟

- إذا وجدتُ هذا النوع فأنا أستعمله، وإذا لم أجده فأنا أستعمل أي نوع آخر.

فهزّ بوارو رأسه ثم سكت، ولكنه كان قد لاحظ في الحال أن هذا النوع يشبه تماماً الفرشاة التي وُجدت في غرفة القتل.

عندما غادر الثلاثة غرفة الكولونيل لاحظ الدكتور قسطنطين نفس الملاحظة، ولكن بوارو هزّ كتفيه وقال: مازلتُ أعتقد أن الكولونيل لم يرتكب هذه الجريمة.

وعندما ذهبوا إلى الغرفة التالية وجدوها مغلقة، وكانت غرفة الأميرة دراغوميروف الروسية، فطرق بوارو بابها فسمع صوت الأميرة وهي تصيح من الداخل: ادخل.

فتح بوارو الباب، ولكنه ترك للسيد بوك مهمة إيضاح السبب من الزيارة فقال ذلك بأدب ولباقة، ولما انتهى من الكلام صمتت الأميرة لحظة ثم قالت: إذا كان لا بدّ من تفتيش الأمتعة فدوّنكم الحقائق، أما المفاتيح فتحملها خادمتي وإذا شئتُم عاونتكم في مهمتكم.

فسألها بوارو: هل جرت العادة أن تحمل الخادمة مفاتيح الحقائق دائماً؟

- بكل تأكيد.

- وإذا حدث في أثناء اجتياز الحدود أن طلب عمال الجمارك تفتيش إحدى الحقائب ، فماذا تفعلين؟

فهزت الأميرة كتفيها وأجابت: هذا لا يحدث إلا نادراً ،
وإذا حدث فمن السهل استدعاء وصيفتي بواسطة أحد عمال عربة النوم.

- يبدو لي أنك تثقين في وصيفتك ثقة تامة.

- الواقع أنني لا ألحق بخدمتي شخصاً لا أثق به.

ثم أقبلت الوصيفة هلدغارد شميد فتحدثت إليها الأميرة باللغة الألمانية وأفهمتها غرض بوارو وزملائه من هذه الزيارة ، ثم طلبت منها أن تفتح الحقائب وتساعدهم في تفتيشها ، ولم تحضر الأميرة عملية التفتيش ، بل ظلت في غرفتها حيث وقفت إلى جانب النافذة وراحت تطل منها.

لم يجد الثلاثة في أمتعة الأميرة ما يثير الشبهات ، فانتقلوا إلى الغرفة المجاورة ، وكان بابها مغلقاً ، وكذلك كان باب الغرفة التالية لها ، فقال السيد بوك محدثاً بوارو: لقد وصلنا إلى غرفتي الكونت الهنغاري وزوجته ، والاثنتان أمتعتهما غير قابلة للتفتيش ؛ فهما يحملان جوازات سفر سياسية.

فقال له بوارو: أمتعتهما غير قابلة للتفتيش بواسطة عمال الجمارك ، وهذا حقيقي ، ولكننا لسنا من عمال الجمارك.

- أعلم ذلك ، ولكن التفتيش غير جائز على كل حال ،
وأخشى أن يؤدي عملنا إلى مشكلات دبلوماسية.

- اطمئن من هذه الناحية يا صديقي ؛ فأنا أعتقد أن الكونت

أندريني يقدر الموقف حق التقدير ، ومهما يكن من أمر فسنحاول ،
والمحاولة لا تكلفنا شيئاً ، فإذا سمح لنا بتفتيش أمتعته ، وأكبر ظني
أنه سيسمح ، فسنكون قد أدينا واجبنا على الوجه الأكمل ، أما إذا لم
يسمح فسنفكر في إجراء آخر .

وقبل أن يترك للسيد بوك فرصة للكلام تقدّم من باب الغرفة
رقم ١٣ فطرقة ، وفي الحال سمع الثلاثة صوت الكونت وهو يصيح
من الداخل : ادخل .

كان الكونت جالساً في أحد الأركان على مقربة من الباب
وبين يديه صحيفة يقرأها ، أما زوجته فقد كانت ممدّدة على مقعد
كبير وتحت رأسها وسادة مما يدل على أنها كانت تغالب النوم ،
فقال بوارو : أرجو المعذرة يا سيدي الكونت ، فظروف الحادث
الذي وقع في هذا القطار ليلة أمس قد استوجبت تفتيش أمتعة
المسافرين ، وهو إجراء شكلي لا أكثر ولا أقل ، ولكننا مضطرون
إلى اتخاذه ، وقد لفت صديقي السيد بوك نظري إلى أنك تحمل
جوازاً سياسياً ، ومن شأن هذا الجواز أن يُعفي أمتعتك من التفتيش ،
وأنا شخصياً أعتقد أن لك كل الحق في هذا الإعفاء .

ففكر الكونت لحظة ثم قال : شكراً لك يا سيدي ، ولكنني
أظن أنني لست بحاجة إلى المطالبة بحقي في مثل هذه الحالة
وأفضل أن تفتيش أمتعتي أسوة بجميع المسافرين .

ثم تحول إلى زوجته وسألها بلطف : آمل ألا يكون لديك
مانع يا إيلينا؟

فأجابت الكونتيسة بغير تردد : لا مانع بالطبع .

وتمّت عملية تفتيش أمتعة الكونت وزوجته بسرعة ، ولم يبدُ

على الكونتيسة أنها اهتمت للأمر أقل اهتمام لأنها ظلت ممددة في مقعدها بقلّة اكتراث، ولم تكلف نفسها الإجابة على بعض أسئلة ألقاها بوارو إخفاءً لحيرته وارتبائه، ثم انتهى الأمر بالاعتذار وتبادل عبارات المجاملة، ثم انصرف بوارو وزميلاه.

ثم مرّوا بالغرفة التالية وهي الغرفة التي كانت تقيم بها السيدة هوبار، فانتقلوا بعد ذلك إلى مركبات الدرجة الثانية، وكانت تقيم بالغرفة الأولى كل من الآنسة ماري دنبهام والسيدة السويدية غريتا أولسون، وكانت ماري دنبهام تقرأ كتاباً، أما غريتا أولسون فكانت مستغرقة في النوم، ولكنها استيقظت حينما دخل بوارو وصديقه.

ذكر بوارو الغرض من زيارته، فظهرت على السيدة السويدية علامات الحيرة والاضطراب، أما ماري دنبهام فقد أصغت إلى كلامه بقلّة اكتراث، فقال بوارو محدثاً غريتا أولسون: إذا سمحت يا سيدتي، سوف نفتش أمتعتك أولاً لكي يتسنى لك اللحاق بالسيدة هوبار؛ فالمسكينة في حالة يُرثى لها من الاضطراب والفرع بسبب عثورها على خنجر القاتل في حقيبتها، وأعتقد أن وجود شخص آخر معها من شأنه أن يصرف ذهنها عن هذا الحادث المزعج.

وفي الحال ظهرت على وجه السيدة السويدية علامات الشفقة فقالت: حقائبي مفتوحة وتستطيعون تفتيش أمتعتي كما تريدون، أما أنا فسألحق بالسيدة هوبار للترفيه عنها.

قالت ذلك ثم انصرفت فأقبل بوارو وزميلاه على أمتعتها يفتشونها، وكانت أمتعتها غاية في البساطة، وقد تمت عملية تفتيشها بسرعة، أما الآنسة ماري دنبهام فقد أصغت بشيء من

الفضول إلى الحديث الذي دار بين بوارو والسيدة السويدية، ثم وضعت الكتاب الذي تقرأه ووقفت ترقب بوارو عن كثب، وعندما طلب بوارو مفاتيح حقيبتها دفعت بها إليه ثم أخذت تنظر حتى رآته يفتح إحدى الحقائق، فسألته: لماذا تعمّدت إبعاد السيدة السويدية يا سيد بوارو؟

فأجاب بوارو وهو يتظاهر بالدهشة: أنا تعمّدتُ إبعادها؟! لا، مطلقاً، إنما أردتُ أن أبعث بها إلى السيدة هوبار للسبب الذي ذكرته.

- هذا عذر لا بأس به، ولكنه عذر على كل حال.

- أنا لا أفهمك يا آنسة.

- بل أظن أنك تفهمني حق الفهم.

ثم ابتسمت وأردفت: لقد أردت أن تبقى معي على انفراد، أليس كذلك؟

- أنت تتوقعين ما لم يدُر بخلدي يا آنسة.

- بل أنا لم أذكر غير الحقيقة يا سيد بوارو، وإذا أردت المزيد من الصراحة فأنا أقول لك بأنك تعتقد (لسبب لا زلتُ أجهله) أنني أعرف شيئاً عن هذه الجريمة المخيفة التي ذهب ضحيتها رجل لم أره قبل الآن.

- أنت تتوهمين ذلك يا آنسة.

- لا، أنا لست واهمة، ولكنني أعتقد بأن المراوغة والمدارة تكلفانك وقتاً ثميناً، وقد كان في مقدورك أن توفر بعض الوقت

والجهد لو أنك عمدت إلى الصراحة ودخلت البيوت من أبوابها.

- ما دمت تكرهين المراوغة والمدارة وإضاعة الوقت فاسمحي لي أن أحدثك بصراحة. أنا أحب أن أعرف منك تفسير بعض كلمات سمعتها في أثناء اجتيازي سوريا، فعندما غادرتُ القطار في محطة قونيا بقصد استعادة نشاطي والترويح عن نفسي سمعت صوتك يا آنسة وأنت تتحدثين إلى الكولونيل أربتنوت تحت جناح الظلام، وكنت تقولين له: "لا، ليس الآن، ليس الآن. لا بد أن ينتهي كل شيء أولاً". فماذا كنتِ تعنين بهذه الكلمات يا آنسة؟

فأجابت بهدوء: أظن أنني كنتُ أشير إلى هذه الجريمة؟

- أنا أسألك يا آنسة، ويهمّني أن أعرف جوابك.

فتنهدت وفكرت لحظة ثم قالت: لهذه الكلمات معنى يا سيدي، ولكنني لن أذكره لك، وكل ما أستطيعه في الوقت الحاضر هو أن أقسم لك بشرفي على أنني لم أرَ القتل في حياتي قبل أن يقع عليه بصري في هذا القطار.

- إذن فأنت ترفضين أيضاً إيضاح معنى الكلمات التي ذكرتها.

- أجل، أرفض لأنني كنتُ أشير بها إلى... إلى مهمة كُلفتُ بأدائها.

- مهمة انتهت.

- ماذا تعني؟

- لقد انتهت المهمة، أليس كذلك؟

- ما الذي يحملك على الاعتقاد بأن المهمة انتهت؟

- أصغي إليّ يا آنسة، سألفت نظرك إلى ظاهرة أخرى مريبة.
عندما تعطل بنا القطار قبل وصولنا إلى إسطنبول ظهرت عليك
علامات القلق والفزع الشديدين، على الرغم مما أرى من رزانتك
وربابة جأشك.

فابتسمت وأجابت: هذا حقيقي، فقد أزعجني أن يفوتني
هذا القطار.

- ذلك ما علمته منك وقتئذ، ولكنك تعلمين كذلك أن قطار
الشرق يغادر إسطنبول يومياً يا آنسة، فلو فاتك هذا القطار لتأخرت
يوماً واحداً عن الوصول إلى لندن.

وعندئذ ظهرت على ماري دبنهام علامات الضجر فقالت:
لعلك لا تعلم أنه إذا كان للإنسان أصدقاء في لندن ينتظرون قدومه
بفارغ الصبر فإن تأخره يوماً واحداً من شأنه أن يزعجهم ويقلب
البرنامج الذي أعدوه لاستقباله رأساً على عقب.

- من الغريب أن هذا القطار تعطل أيضاً، وليس في مقدورك
أن تتصلي بأصدقائك عن طريق البرق أو الهاتف أو بآية واسطة
أخرى، ومع ذلك لم يظهر عليك شيء من دلائل القلق
والانزعاج.

فصعد الدم إلى وجنتيها وعضّت شفتيها فقال لها: أراك لا
تجيبين يا آنسة.

- يؤسفني أنني لا أرى ما يستحق الإجابة.

- كيف ذلك؟ أنا أسألك عن السر في تغير أطوارك بهذه

السرعة يا آنسة.

- ألا ترى يا سيد بوارو أنك كلف نفسك كثيراً من العناء من أجل شيء لا يستحق العناء؟

فنظر إليها معتذراً وقال: لعل هذا من أظهر عيوبنا نحن المحققين، فنحن نطالب بإيضاح كل ظاهرة مهما كانت تافهة.

فلم تجب الأنسة دبنهام، وفجأة انتقل بوارو إلى موضوع آخر إذ سأل الفتاة الإنكليزية قائلاً: أتعرفين الكولونيل أربتنوت منذ مدة يا آنسة؟

فأدهشها هذا السؤال المفاجئ، ولكن ظهرت عليها دلائل الارتياح بتغيير الموضوع فأجابت: لقد قابلته لأول مرة في هذه الرحلة.

- هل لديك من الأسباب ما يحملك على الاعتقاد بأنه كان يعرف السيد راتشيت القتل؟

فأجابت بلهجة تدل على الحزم: أنا واثقة من أنه لم يكن يعرفه.

- أألزمت ترفضين إيضاح معنى الكلمات التي سمعتك تذكرينها للكولونيل؟

فأجابت ببرود: ليس عندي ما أقوله.

- لا بأس، سوف أعرف الحقيقة بنفسي.

ثم أحنى رأسه باحترام وغادر الغرفة فتبعه زميلاه.

دخل الثلاثة بعد ذلك غرفة هلدغارد شميد، وكانت قد

توقعت بعد زيارتهم لغرفة سيدتها أنهم سيزورون غرفتها كذلك لتفتيش أمتعتها، فوقفت في شيء من الجزع والخوف، وكانت توجد في غرفتها حقيبتان إحداهما صغيرة فتشها بوارو بسرعة ثم طلب مفاتيح الحقيبة الثانية، وهي أكبر من الأولى قليلاً، فقالت: الحقيبة مفتوحة.

فرفع غطاء الحقيبة، ولم يكد يفعل ذلك حتى أفلتت من فمه صيحة تدل على الدهشة ثم قال: أنظر يا سيد بوك. أتذكر ما قلته لك؟ أنظر.

فأسرع السيد بوك والدكتور قسطنطين ونظرا إلى محتويات الحقيبة، فوقع بصرهما على ثوب من ثياب ملاحظي مركبات النوم بحالة تدل على أنه طوي ووضِع في الحقيبة على عجل، وعندئذ تغيرت ملامح وجهها فجأة فظهرت عليها علامات الفزع الشديد ثم هتفت: هذا الثوب ليس لي ولا أعرف عنه شيئاً ولم أضعه هنا، وأقسم لك أنني لم أفتح هذه الحقيبة منذ غادرتُ إسطنبول.

ثم راحت تنقل بصرها بين الرجال الثلاثة وفي عينيها نظرة استعطاف، فوضع بوارو يده على كتفها في لطف وقال: اطمئني، اطمئني؛ أنا أثق بك، لا تنزعجي. أنا على يقين من أنك لم تضعي هذا الثوب في الحقيبة، وإذا أردت معرفة السر في وجوده بين أمتعتك فسأوضح لك هذا السر. الشخص الذي قابلك، أو بمعنى آخر الشخص الذي كان يرتدي هذا الثوب واصطدم بك في أثناء انطلاقك إلى غرفة سيدتك كما ذكرت في شهادتك، هذا الشخص كان قد خرج لتوّه من غرفة القتل، وكان من سوء حظه حقاً أنه اصطدم بك لأنه كان يركب ألاً يراه أحد، فلما رأيته خاف إن يُفتضح أمره، ففكر وفكر، ثم هداه التفكير إلى ضرورة التخلص من الثوب

الذي كان متنكراً به، ولكن كيف يتخلص منه؟

ثم نظر إليها قبل أن يستطرد قائلاً: لقد خطر له أن يُلقِي هذا الثوب الخطير من نافذة القطار، ولكنه عاد فتذكر أن القطار محاط بالثلج وأن أحد المسافرين لا بد أن يرى الثوب فوق الثلج في الصباح، فأين يخفي الثوب إذن؟ وكانت جميع الغرف مشغولة، ما عدا غرفة واحدة طبعاً، هي الغرفة التي وجد بابها مفتوحاً، والتي فهم في الحال أن صاحبها هي التي قابلته واصطدمت به، فدخل هذه الغرفة وخلع الثوب وأخفاه في هذه الحقيبة بسرعة، وهو واثق أنه سينقضي وقت وطويل قبل أن يكتشفه أحد.

قال ذلك ثم تناول الثوب من الحقيبة وفحصه بسرعة فوجد أن السترة ينقصها زر، وهو ولا شك الزر الذي وجدته السيدة هوبار تحت نافذة غرفتها، وعثر في أحد الجيوب -فضلاً عن ذلك- على مفتاح من نوع المفاتيح التي يستعملها موظفو عربات النوم لفتح أبواب المركبات، وعندئذ هتف السيد بوك: هذا المفتاح يفسّر لنا السرّ في استطاعة القاتل المرور من جميع الأبواب.

وصمت لحظة ثم عاد فأردف: لقد أرهقت السيدة هوبار بالأسئلة دون جدوى، وكان من السهل علينا أن نستنتج أن القاتل إذا كان قد استطاع الحصول على ثوب من ثياب موظفي عربات النوم فلا بد أن يكون قد استطاع كذلك الحصول على مفتاح لفتح أبواب الغرف وغلقها.

فقال بوارو: هذا صحيح، والذي استطعت أن أفهمه الآن هو أن القاتل استخدم هذا المفتاح للمرور من غرفة القتل إلى غرفة السيدة هوبار، ولكن المهم في الوقت الحاضر هو أن نعثر على

الوشاح الأحمر.

فقال السيد بوك: صدقت، ولكن لا تنس أننا فتشنا جميع المركبات إلا اثنتين يشغلهما رجال.

- لا بد من تفتيشهما على كل حال.

وكانت الغرفة التالية هي غرفة هكتور ماكوين سكرتير القتل، وقد وافق في الحال على فكرة التفتيش، فقال وعلى شفثيه ابتسامة مأكرة: أعلم أنني الشخص الذي يحوم حوله أكبر جانب من الريب والشبهات، لذا يسرني أن تفتشوا أمتعتي ليطمئن بالي، وكل خوفي الآن أن تعثروا على وصية من القتل يوصي لي فيها بكل أمواله لكي تثبت عليّ جريمة الفتك به.

فضحك بوارو وبدأ عملية التفتيش التي انتهى منها بسرعة، ثم غادر الغرفة ومعه زميلاه، فشيعهما ماكوين بأهة عميقة تدل على الارتياح، ثم ذهبوا بعد ذلك إلى غرفة الرجل الإيطالي الضخم الجثة ففتشوها، ولكن دون جدوى، وأخيراً وقف الرجال الثلاثة في نهاية المركبة وتبادلوا نظرات ذات معنى فسأل بوك: ماذا نفعل الآن؟

فقال بوارو: سنعود إلى مركبة الطعام الآن، فقد عرفنا كل ما نستطيع معرفته وجمعنا أقوال المسافرين جميعاً ونتائج عملية التفتيش، وينبغي علينا الآن ألا نتوقع أية معونة أخرى من الخارج أو من المسافرين، بل يجب أن نفكر ونجهد عقولنا للوصول إلى النتيجة.

قال ذلك ثم وضع يده في جيبه فأخرج علبة التبغ، ولكنه وجدها فارغة فقال لزميله: سأحضر بعض لفافات التبغ من غرفتي

ثم ألحق بكما حالاً.

هرول بوارو إلى غرفته ثم فتح إحدى حقائبه، ولم يكد يلقي ببصره على محتويات الحقيبة حتى وقف جامداً مبهوتاً، ذلك لأنه رأى وشاحاً أحمر من الحرير قد طوي بعناية ووُضع في الحقيبة، فرفعه بين يديه ليجده مطرّزاً بصورة تنين، إذن فهذا هو الوشاح الذي كانت ترتديه السيدة التي اشتركت في جريمة قتل راتشيت، فغمغم بوارو قائلاً: إذن فالقاتل يتحداني، حسناً، وأنا قبلتُ التحدي.

* * *

الفصل الرابع والعشرون

قال بوارو لصاحبه: ما يهمني في هذه القضية ويحرك فضولي ورغبتني إلى معرفة أسرارها المبهمة هو أننا بمعزل عن العالم أولاً وأمام طائفة من المعلومات المتناقضة ثانية، والواقع أنني أسأل نفسي: ترى هل قال المسافرون جميعاً الصدق أم كان بينهم الكاذب المخادع؟ بالإضافة إلى أننا لا نملك من الأساليب والوسائل ما يساعدنا على التأكد من صدق الصادقين أو كشف كذب الكاذبين، وعليه فمن واجبنا أن نخلق هذه الأساليب والوسائل، وهذا على ما أعتقد رياضة للذهن لا بأس بها. أما أقوال الشهود فهي في اعتقادي لا أهمية لها ولا يمكن أن توصلنا إلى أكثر مما وصلنا إليه.

فهزّ السيد بوك رأسه وقال: لا أوافقك على هذا الرأي يا صديقي لأنني فهمت من أقوال الشهود أشياء ذات أهمية.

فقال بوارو متهكماً: أتقول الصدق؟ يؤسفني أنني لم ألاحظ هذه الأشياء ذات الأهمية.

- لأنك لم تكن تصغي جيداً إلى ما يُقال.

- إذن أخبرني بما فاتني الإصغاء إليه.

- سأضرب لك مثلاً. أول من سمعنا من الشهود هو السيد

ماكوين الشاب سكرتير القتل، وقد تكلم هذا الشاب بكلام على جانب عظيم من الأهمية.

- أتقصد كلامه عن خطابات التهديد التي أرسلت إلى القتل؟

- لا، لا أقصد كلامه عن خطابات التهديد، وإنما أقصد قوله إنهما طافا بالعالم، لأن السيد راتشيت كان يريد أن يرى العالم ولكن كان يقعه عن المضي في ذلك بمفرده جهله باللغات، وعلمه بأن اللغة الأمريكية وحدها لا تكفي، ومع ذلك عندما سمع ملاحظ عربات النوم رنين الجرس فهرول إلى غرفة راتشيت ليسأله عما يريد سمع صوتاً من الداخل يقول له بالفرنسية الصحيحة إنه قرع الجرس خطأ وأنه لا يريد شيئاً.

فصاح الدكتور قسطنطين: إذن فالقاتل هو الذي تكلم بالفرنسية وقال لملاحظ مركبات النوم إنه دق الجرس خطأ وأنه لا يطلب شيئاً.

فابتسم بوارو ثم قال: يجب أن نتقدم خطوة خطوة.

* * *

الفصل الخامس والعشرون

قال بوارو ذلك ثم أخرج من جيبه قصاصات من الورق فوضعها أمام السيد بوك ثم أردف قائلاً: هذه بعض أسئلة سجلتها، فجرّب ذكاءك ربما استطعت أن تجد جواباً لبعضها.

فتناول السيد بوك الورق وقرأ فيها ما يلي:

(١) مَنْ صاحب المنديل الذي طُرز على أحد أركانه
حرف «ه»؟

(٢) هل سقطت فرشاة الغليون من الكولونيل أربتنوت
أم من سواه؟

(٣) مَنْ الذي كان يرتدي الوشاح الأحمر؟

(٤) مَنْ الرجل أو المرأة الذي تنكّر في زي حارس
مركبات النوم؟

(٥) لماذا وقف عقربا الساعة على الواحدة والرّبع؟

(٦) هل ارتكبت الجريمة في الوقت الذي يدلّ عليه
عقربا الساعة؟

(٧) هل المجرم شخص واحد أم أكثر؟

(٨) علام تدلّ الإصابة؟

فقال السيد بوك وقد تألقت عيناه: هلمّ بنا نجرب معالجة هذه الأسئلة معاً، ولنعالجها بالترتيب فنبدأ بمسألة المنديل. يوجد ثلاثة أشخاص يجوز نسبة المنديل إليهم، وهم السيدة هوبار والآنسة دبنهام واسمها الحقيقي ماري هرميون والسيدة هلدغارد شميد، وحرف الهاء كما ترى موجود في أسمائهن جميعاً.

فقال بوارو: هذا حسن، ولكن على أيهنّ يقع التخصيص؟

ففكر السيد بوك لحظة ثم أجاب: هذا صعب تحديده، ولكنني أرتاب في الآنسة دبنهام؛ فبعض الريّة تحوم حولها، وأنت نفسك سمعتَ حديثاً عجيباً دار بينها وبين الكولونيل رفضتَ ذكر معناه.

فقال الدكتور قسطنطين: أما أنا فأرتاب في السيدة الأمريكية السيدة هوبار لأن المنديل غالي الثمن، ونحن نعلم أن الأمريكيات لا يعبأن كثيراً بثمن الأشياء التي تنال إعجابهن.

فقال بوارو: إذن أنتما تسقطان من حسابكما هلدغارد شميد.

- أجل، ولعلك تذكر ما قلته من أن المنديل لا بدّ وأن يكون لسيدة من طبقة أرقى من الطبقة التي تنتمي هي إليها.

- والمسألة الثانية، أعني مسألة فرشاة الغليون، أعتقد أنها سقطت من الكولونيل أربتنوت أم من سواه؟

- وهذا أيضاً سؤال دقيق لأن الإنكليز لا يطعنون بالخناجر، وفي اعتقادي أن شخصاً آخر غير الكولونيل هو الذي فقد فرشاة الغليون في غرفة الضحية.

فقال الدكتور: أنا أوافقك على ما ذكرته قبلاً يا سيد بوارو وهو أنه من غير المحتمل أن يترك القاتل أو القاتلة هذين الأثرين، ويغلب على ظني أن المنديل ترك سهواً حقيقةً، أما الفرشاة فهي أثر مفتعل، أضف إلى ذلك أن الكولونيل لم يحاول الإنكار ولم يضطرب، بل قرر في صراحة أنه يدخن الغليون وأنه يستعمل مثل هذا النوع من الفرشاة.

فقال بوارو: هذا كلام معقول.

فقال السيد بوك: والآن ننتقل إلى السؤال الثالث، مَنْ الذي كان يرتدي الوشاح الأحمر؟ والحق أنني ليست لديّ أية فكرة عن هذا الموضوع.

فهزّ الدكتور رأسه وقال: وأنا مثلك لا أستطيع أن أستنتج شيئاً في هذا الصدد.

- إذن فنحن نعترف بعجزنا عن إجابة هذا السؤال. فلننتقل إلى السؤال التالي، مَنْ الرجل أو السيدة الذي تنكّر في زي حارس مركبات النوم؟ نحن نستطيع بغير عناء أن نذكر أسماء المسافرين الذين لا يمكن الارتباب بهم في هذا الصدد، ومن بين هؤلاء المسافرين الذين ترتفع بهم ظروفهم أو طبيعتهم عن مواطن الريب هاردمان والكولونيل أربنتوت والإيطالي فوسكاريللي والكونت أندريني وهكتور ماكوين والسيدة هوبار وهلدغارد شמיד وغريتا أولسون.

وصمت برهة قبل أن يستطرد قائلاً: فإذا استثنينا هؤلاء من مجموع المسافرين بقي أمانا كل من ماري دبنهام والأميرة دراغوميروف والكونتيسة أندريني وماسترمان خادم راتشيت. وقد

أقسمت غريتا أولسون من ناحية وأقسم أنطونيو فوسكاريللي من ناحية أخرى على أن ماري دبنهام والخادم ماسترمان لم يغادرا فراشهما في ليلة ارتكاب الجريمة، وأقسمت هلدغارد شميد على أن الأميرة دراغوميروف لزمّت غرفتها طوال تلك الليلة، وأكد لنا الكونت أندرييني أن زوجته تتناول مخدراً لمقاومة الأرق، وعلى ذلك لا يبقى لدينا من نستطيع اتهمه بالتنكر في زي حارس مركبات النوم، وهذا شيء في غاية الغرابة!

ثم انتقل السيد بوك إلى السؤال الخامس: لماذا وقف عقربا الساعة على الواحدة والرّبع؟ في اعتقادي أنه يوجد تعليلان لهذه الظاهرة: الأوّل أن يكون المجرم قد تعمد أن يكون عقربا الساعة في ذلك الوضع ليتمكن من الخلاص من تبعة الجريمة، أو بمعنى آخر ليتمكن إذا سُئل أين كان في ذلك الوقت أن يستشهد بمن يقرر أنه رآه في مكان ما. التعليل الثاني... ولكن مهلاً، لقد خطر لي خاطر آخر، لقد اتفقنا على أن هناك قاتلين دخل أحدهما غرفة القتل وفتك به ثم انصرف، ثم دخل الثاني فطعنه بيده اليسرى ظناً منه أنه لا يزال على قيد الحياة، واتفقنا كذلك على أن الأوّل كان متنكراً في زي حارس مركبات النوم وأن الثانية، وهي امرأة كانت ترتدي الوشاح الأحمر، فأنا أظن أن المجرم الأوّل ليس هو الذي عبث بعقربي الساعة، وأن القاتلة هي التي فعلت ذلك لتجد لنفسها مخرجاً عند اللزوم.

فهتف الدكتور: مرحى، مرحى، من المؤكد أن هذا هو الرأي الأصوب.

فقال بوارو في تهكم: هذا ممكن، فقد طعنت جثته في الظلام دون أن تعلم أنه مات فعلاً، ثم خطر لها أنه ربما يحمل ساعة في

جيب بيجامته ، فبحثت عن الساعة وعبثت بعقربيها في الظلام ، ثم وضعت العقربين حيثما اتفق.

فنظر إليه بوك ببرود وسأله: أستطيع أن تقدم تفسيراً أفضل؟

فأجاب بوارو: لا أستطيع في الوقت الحاضر.

فقال السيد بوك: يوجد أمر آخر يجب أن نغنى بفحصه ، وهو أمر القتال. أفلا يجب أن نبحث عن المسافر الأعسر بين المسافرين في مركبات النوم؟

فأجاب بوارو: أنا لم أهمل هذه النقطة أبداً ، ولعلك لاحظت أنني استكثت جميع المسافرين أسماءهم لأعرف أيهم الأعسر ، ولكنني أعترف بأنها ليست الطريقة العملية ؛ فبعض الناس يستخدمون يميناهم تارة ويسراهم تارة أخرى ، ولقد عرفتُ فيمن عرفتُ أناساً يكتبون يميناهم ويلعبون الغولف يسراهم ، وقد لاحظتُ أن جميع المسافرين تناولوا القلم بأيديهم اليمنى فيما عدا الأميرة دراغوميروف التي رفضت الكتابة بتاتاً.

فهتف السيد بوك: الأميرة دراغوميروف؟ هذه السيدة النبيلة أشرف من أن تقدم على ارتكاب جريمة كهذه.

فقال الدكتور: وأنا كذلك أرتاب في قدرة يدها النحيفة الهزيلة على إحداث تلك الطعنات الهائلة التي أثبت الفحص أن طاعنها شخص أعسر.

فقال بوارو: هل تعتقد أن الذي أحدث هذه الطعنات القوية لا يمكن أن يكون امرأة؟

- أنا لم أقل ذلك، ولكنني أقول إن سيدة متقدمة في السن لا تقوى على إحداث مثل هذه الطعنات الشديدة، ولعلك تلاحظ معي أن الأميرة دراغومиров ضعيفة ومتقدمة في السن.

فقال بوارو: لا تنس أهمية قوة الإرادة في مثل هذه الحوادث، ولا ما للعقل من سلطان على الجسم في بعض الأحيان، والأميرة دراغومиров - وإن كانت متقدمة في السن وضعيفة البدن - ذات إرادة من حديد. لكن لندع هذا الموضوع ولنبحث عن إجابات للأسئلة الأخرى.

فقال الدكتور: السؤالان السابع والثامن: هل القاتل شخص واحد أم أكثر؟ وما الذي تدل عليه الإصابة؟ أنا شخصياً أرى كطبيب أن القاتل أكثر من شخص، وهناك إصابات أحدثتها يد يمنى وأخرى أحدثتها يد يسرى؛ فمن غير المعقول أن يكون هناك قاتل واحد أخذ يطعن بيده اليمنى طعنات ضعيفة أولاً ثم عاد بعد نصف الساعة أو ما يقرب من ذلك، أي بعدما تُوِّفِّي القتل متأثراً بجراحه، فراح يطعن الجثة طعنات قوية، نعم، هذا غير معقول.

فقال بوارو: نعم، هذا غير معقول، ولكن هل من المعقول أن يكون هناك قاتلان؟

- أنت نفسك اعترفت بأنه لا يوجد ما يفسر الإصابة غير وجود قاتلين، فهل تظن أنه يوجد تفسير آخر؟

فارتسمت في عيني بوارو نظرة تفكير ثم أجاب: أنا أسائل نفسي هذا السؤال.

ثم اضطجع في مقعده وضرب جبهته بيده وقال: لقد عالجت الأدلة والحقائق وأقوال الشهود فخرجتُ بنتيجة، نعم، لقد اهتديت

إلى تفسير أظن أنه قريب من الحقيقة، ولكنني لا أذكر أنه التفسير الحقيقي، بل يجب قبل أن أقطع في الموضوع برأي أن أقوم ببعض التجارب. سأحدث الآن عن بعض أمور أرى أنها تحتاج إلى أعمال الفكر وإمعان النظر، فأبدأ بإيراد ملاحظة أشار إليها صديقي السيد بوك في حديث دار بيني وبينه عندما تناولنا الطعام معاً للمرة الأولى في هذه المركبة، فقد قال لي وقتئذ إننا محاطون بأناس مختلفي الطباع والجنس واللغة، وهي حقيقة تبدو غريبة عند الكلام عن المسافرين بقطار الشرق في مثل هذا الوقت من السنة.

ثم أخذ نفساً عميقاً قبل أن يستطرد قائلاً: وثمة ملاحظات أخرى أهمها اسم والددة السيدة أرمسترونغ، وما ذكره السيد ماكوين من أن القتل ربما كان هو الذي أحرق الرسالة التي وجدنا رمادها في غرفته، والوسائل البوليسية التي لجأ إليها السيد هاردمان، وبقعة صغيرة رأيته في جواز سفر الكونت الهنغاري وزوجته.

* * *

الفصل السادس والعشرون

تناول السيد بوك جواز سفر الكونت أندريني فتصفحه ثم أشار إلى بقعة صفراء بسيطة أمام اسم الكونتيسة وقال: أتعني هذه؟

قال بوارو: نعم، وهي بقعة حديثة تبدو وكأنها نقطة دم.

- لقد رأيتهما، فماذا تفهم منها؟

- تأمل موقعها.

- أراها موجودة عند بداية اسم الكونتيسة، ولكنني لا أفهم السر في وجود نقطة الدم في هذا المكان.

- سأوضح لك رأيي بالتدريج. لنرجع أولاً إلى مسألة المنديل الذي عثرنا عليه في مكان الجريمة. هذا المنديل نوع فاخر جداً، وهو من طراز المناديل الباريسية الثمينة، فأية امرأة بين المسافرين (بغض النظر عن الأسماء) يُحتمل أن تقتني مثل هذا المنديل الثمين؟ السيدة هوبار سيدة متقدمة في السن، ولا يدل مظهرها على التأنق والإسراف، لذا لا يمكن أن يكون هذا المنديل منديلها، وكذلك لا يمكن أن يكون لفتاة إنكليزية من الطبقة المتوسطة كالآنسة دبنهام، ومن المؤكد كذلك أنه لا يمكن أن يكون للوصيفة هلدغارد شميد.

ثم صمت برهة قبل أن يستطرد قائلاً: ولكن يوجد إلى جانب أولئك الثلاث سيدتان يُفترض أن تقتنيا مثل هذا المنديل بحكم مركزهما في الهيئة الاجتماعية، والسيدتان هما الأميرة دراغوميروف...

فقاطعه السيد بوك بهكم: واسمها ناتاليا دراغوميروف، أي أن حرف «ه» لا وجود له في اسمها أو لقبها.

- هذا صحيح، أما السيدة الثانية فهي الكونتيسة أندريني. وعند الكلام عن الكونتيسة يجب أن أعود إلى ذكر البقعة الموجودة في جواز السفر فوق بداية اسمها، وهي بقعة يُخيل إلي أنها نقطة دم، بل أرجح أنها نقطة دم، وقد يتبادر إلى الذهن أن تكون هذه النقطة قد وقعت فوق بداية اسمها اتفاقاً، فكل شيء ممكن ومحتمل الوقوع، ولكن مما يلفت النظر ويشير الشكوك أن اسمها إيلين.

ثم نظر إلى السيد بوك وأردف: لنفرض أن اسمها هو هيلين لا إيلين، ألا يكون من السهل جداً إحداث التغيير وإزالة حرف الهاء وإبداله بحرف الألف ثم وُضعت هذه البقعة لإخفاء هذا التلاعب؟

وهنا صاح بوك: هيلين؟! هذه فكرة جيدة.

- أجل، هذه فكرة جيدة، ومما يشير الريب ما لاحظته على حقيبة الكونتيسة، فقد كان اسمها مكتوباً على حقيبتها، وقد لاحظتُ أن إحدى بطاقات التخليص على البضائع قد ألصقت عمداً على اسمها، ولاحظتُ أنها ألصقت حديثاً، بمعنى أنها انتزعت من مكان ما في الحقيبة ثم ألصقت فوق الاسم.

- كل هذا كلام طيب، ولكن الكونتيسة... هل من المعقول أن تكون هي التي...

فقاطعه بوارو: لا، لا يا سيدي، فنقطة الدم وتغيير الاسم ورغبة الكونتيسة أندريني في إخفاء شخصيتها لا يثبتان التهمة ضدها ولا يعنيان أنها هي التي ارتكبت الجريمة، وإنما قد يكون لذلك معنى آخر، فقد يكون معناه أن الكونتيسة تنتمي إلى أسرة آرمسترونغ التي يهمها دون غيرها أن تفتك بالقتيل، وأن يكون مجرد رغبتها في إخفاء هذه العلاقة هو الذي دفعها إلى تغيير اسمها، إذ لا بدّ أن تكون قد علمت أننا نبحث عن سيدة يتبدّى اسمها بحرف الهاء، وأنها علمنا سرّ الجريمة، أو بمعنى آخر عرفنا الصلة بينها وبين حكاية أسرة آرمسترونغ، وليس عجباً أن تكون هذه الأنباء قد ترامت إليها في أثناء التحقيق فعمدّت في الحال إلى إزالة كل ما كان من شأنه أن يثبت صلتها بأسرة آرمسترونغ، لا شيء إلا لمجرد الرغبة في التخلص من مضايقات التحقيق.

- ولكن ما الصلة بينها وبين أسرة آرمسترونغ؟ لقد قالت إنها لم تسافر إلى أمريكا قط.

- أجل، لقد قالت ذلك وفعلت أكثر منه، راحت تتكلم الإنكليزية بلهجة سقيمة وتبالغ في التظاهر بأنها ليست إنكليزية ولا أمريكية، ولكن لا تنسَ أن والدّة السيدة آرمسترونغ كانت ممثلة بارعة، وكانت معروفة في أمريكا باسم ليندا آردن، ولكن اسمها الحقيقي هو ليندا غولدنبرغ. وفي اعتقادي أيها السادة أن صغرى بنات ليندا آردن، واسمها هيلين غولدنبرغ، هي نفسها إيلين أندريني زوجة الكونت أندريني الملحقة بمفوضية هنغاريا في واشنطن.

- ولكن الأميرة دراغومиров أكدت لنا أن صغرى بنات ليندا آردن تزوجت برجل إنكليزي! ثم رحلت إلى إنكلترا حيث انقطعت أخبارها.

- نعم، نعم، وفضلاً عن ذلك أكدت أنها لا تذكر اسم الزوج، ولكن هل هذا معقول؟ لقد كانت الأميرة تحب ليندا آردن كما تعودت نساء العظماء أن يحبين كُبريات الممثلات ونساء الفن، فهل يصح أن تكون نسيت بنات صديقتها الممثلة ولم تهتم بتقصي أنبائهن؟ لا، لا، فأنا أظن أن الأميرة دراغومиров كانت كاذبة فيما قالت وأنها تعلم يقيناً أن هيلين غولدنبرغ تسافر معها في القطار، ولما علمت حقيقة راتشيت خافت أن تتجه التهمة إلى هيلين ابنة صديقتها، فتعمدت الكذب لترفع عنها كل شبهة.

وعندما وصل بوارو إلى هذه النتيجة دخل أحد عمال مركبات النوم فقال إن طعام العشاء جاهز.

* * *

الفصل السابع والعشرون

جلس بوارو والسيد بوك والدكتور اليوناني إلى إحدى الموائد في مركبة الطعام، وتناول المسافرون طعام العشاء في جو هادئ، وأجال بوارو طرفه في أنحاء المركبة فأبصر الكونت وزوجته وقد جلسا حول مائدة منعزلة فأشرقَت أسارير وجهه، ثم دعا الخادم فهمس في أذنه بكلام، فكانت نتيجة التعليمات التي تلقّاها الخادم من بوارو أن أبطأ الأول في خدمة الكونت والكونتيسة فظلاً في المركبة بعد انصراف الآخرين.

وأخيراً فرغ الاثنان من تناول الطعام وهما بالانصراف، فوثب بوارو في أثرهما وقال محدثاً الكونتيسة: عفواً يا سيدتي، لقد وقع منديلك.

ثم قدّم إليها المنديل المطرّز الذي عثر عليه في غرفة الضحية، فتناولته ثم أمعنت النظر إليه ثم ردتّه إليه وهي تقول: لقد أخطأت يا سيدي؛ هذا ليس منديلي.

- ليس لك؟ هل أنت واثقة؟

- طبعاً.

- لكن حرف الهاء هذا هو الحرف الأول من اسمك...

وهنا أتى الكونت بحركة فجائية تدلّ على الضجر والغضب، ولكن بوارو تجاهله وظل ينظر إلى وجه الكونتيسة بحدة غير أنها قابلت نظره بمثلها ثم قالت: لا أستطيع أن أفهمك يا سيدي. اسمي يبدأ بحرف الألف لا بحرف الهاء.

- لا أظن يا سيدتي، فاسمك هيلين لا إيلين، اسمك هيلين غولدنبرغ، وأنت صغرى بنات ليندا غولدنبرغ الشهيرة باسم ليندا أردن، كذلك أنت أخت السيدة آرمسترونغ.

وهنا ساد صمت عميق استغرق لحظة، وفي الحال لاحظ بوارو أن الكونت وزوجته قد امتقع لونهما، فاستطرد بهدوء ورفق: هل أستطيع أن أعرف السّر في وجود هذه النقطة فوق الحرف الأول من اسمك في جواز السفر؟ إنها نقطة دم على ما أظن.

فقالت الكونتيسة: نعم، سببها دبوس أصاب إصبع الموظف الذي كتب جواز السفر فأدماه.

ابتسم بوارو ثم قال: كالدبوس الذي أصابع إصبع الكونت؟ ثم نظر إلي يد الكونت الذي كان أحد أصابعه معصوباً، ثم تابع: هناك طرق أخرى لطمس الكلام المكتوب غير تغطيته بالدم وتعريض إصبعك للتسمم يا سيدي الكونت، ولكن ربما كان لك العذر في أن الجواز مكتوب بالحبر الأحمر ولم تتمكن من الحصول على الحبر لأنك في قطار، ولأنه لم يكن لديك متسع من الوقت لتفعل غير ذلك. لا فائدة من الإنكار فهذه هي الحقيقة، أليس كذلك؟

فصاح الكونت بلهجة الغاضب المحنق: أنا أسألك يا سيدي، بأي حق...؟

لكن زوجته قاطعته بأن رفعت يدها الصغيرة نحو فمه ثم قالت: لا يا رودلف، دعني أتكلم وأوضح كل شيء. فلا فائدة من تكذيب هذا السيد، والأفضل أن نخلو لتكلم ملياً.

فصمت الكونت، وجلست زوجته فحذا حذوها ثم قالت: لقد ذكرت الحقيقة يا سيدي؛ أنا هيلين غولدنبرغ أخت السيدة أرمسترونغ.

- يسرني أن تعترفي بالحقيقة يا سيدتي، والآن، هل تستطيعين أن تذكر لي لماذا تعمدت تغيير اسمك في جواز السفر؟ فقال الكونت: أنا الذي فعلت ذلك.

ثم قالت زوجته بهدوء: من المؤكد يا سيد بوارو أنك تستطيع أن تفهم السبب؛ فالرجل الذي قُتل في هذا القطار هو الذي قتل ابنة أختي وكان سبباً في موت أختي وزوجها، وقد لوث يديه بدماء أعز الناس إليّ في هذا العالم.

ثم ارتجف صوتها فشعر بوارو أنه أمام مخلوقة حزينة كسيرة القلب أو أمام ممثلة قديرة ورثت عن أمها تلك المواهب التي طالما ألهمت أكفّ المتفرجين بالتصفيق، ثم تابعت: أنا الوحيدة في هذه القطار التي يهّمها موت هذا الشخص، وطبيعي أن تتجه التهمة إليّ قبل غيري.

- ألم تقتليه يا سيدتي؟

- أقسم لك يا سيد بوارو، وها هو زوجي يؤيد قسمي، أنني بالرغم من العوامل التي تحفزني إلى قتل هذا الرجل فأنا لم أشرع بل لم أفكر في قتله.

ثم قال الكونت: وأنا أقسم لك كذلك يا سيدي أن هيلين لم تغادر الغرفة ليلة أمس لأنها تناولت دواء ضد الأرق كما قلت لك، فهي بريئة تماماً من الجريمة.

فأخذ بوارو ينقل بصره في حين ردّد الكونت: أقسم لك بشرفي.

فهزّ بوارو رأسه ثم قال: ومع ذلك فقد فعلت هذا التغيير في جواز السفر.

فقال الكونت بحدة وإخلاص: أرجو أن تقدّر موقعي يا سيد بوارو. هل تظن أنني كنت أستطيع أن أترك زوجتي تقع في أيدي الشرطة وتُساق إلى محكمة الجنايات في قضية كهذه؟ زوجتي بريئة وأنا واثق من ذلك، وهي لم تقلّ غير الحقيقة حين قالت إن صلتها بأسرة أرمسترونغ كان مصيرها حتماً أن تحيطها بالشك، وقد كان من سوء حظنا أننا سافرنا في نفس القطار الذي سافر فيه راتشيت. هذه هي كل جريمتنا إذا صحّ لك أن تعتبر سوء الحظ جريمة، وهذا ما دعاني إلى الكذب، ولكنني كنتُ صادقاً حين قلت إن زوجتي لم تغادر غرفتها ليلة أمس.

فأجاب بوارو: لا أقول إنني أرتاب في كلامك يا سيدي؛ فأنت من سلالة أسرة عريقة ومن المؤكد أنه يؤلمك أن يُقبض على زوجتك، فأنا أقدر دقة موقفك، ولكنني أحب أن تفسر لي السرفي وجود منديل زوجتك في غرفة القتل.

فقالت الكونتيسة: هذا المنديل ليس لي يا سيدي.

- على الرغم من وجود الحرف الأول من اسمك على أحد جوانبه؟

- نعم، على الرغم من وجود هذا الحرف.

وصمتت ثم عادت فأردفت: أنا أقتني مناديل من نوع يشبه هذا النوع، ولكن هذا المنديل ليس لي، وأنا أعلم أنني لا أستطيع حملك على تصديقي طبعاً، ولكنني أقسم إنني صادقة فيما أقول.

- ألا يمكن أن يكون هذا المنديل قد وُضع في مكان الجريمة لإثارة الشكوك حولك؟

فابتسمت ثم قالت: أنت تريدني أن أعترف ضمناً بأن المنديل لي، ولكنه في الواقع ليس لي.

وقد قالت ذلك بهدوء تام فسألها بوارو: إذن لماذا أبدلت الحروف الأولى من اسمك في جواز السفر ما دام هذا المنديل ليس لك؟

فأجاب الكونت: أنا الذي أبدلت الحروف الأولى من اسم هيلين، أما السبب فهو أننا علمنا أن منديلاً وُجد في مكان الجريمة وعليه حرف الهاء، فعالجنا المشكلة فيما بيننا قبل أن نُسأل أمام المحقق، وأفهمتُ هيلين أن المحقق إذا وجد اسمها يبدأ بحرف الهاء فإنه سيثدّد عليها في الأسئلة والتحقيق، وهكذا تم الاتفاق بيننا على أن نُبدل بحرف الهاء حرف الألف.

فقال بوارو محدثاً الكونتيسة: أسباب الجريمة التي نحن بصددّها تتصل بحوادث قديمة حطمت سعادتك وكادت تفني أسرتك، فهلاًّ عدتِ بي إلى الماضي فربما أجد الحلقة المفقودة التي تفسّر لنا ما تعرّس علينا فهمه.

- كيف أستطيع أن أسرد عليك حوادث الماضي؟! جميع

الذين اتصلوا بتلك الحوادث ماتوا، نعم، ماتوا جميعاً، ماتت أختي المسكينة سونيا وزوجها المحبوب روبرت وطفلتها العزيزة ديزي.

ثم جففت دمعة تدرجت على وجنتيها فقال بوارو: سأطرح عليك سؤالاً أرجو أن تفكري جيداً قبل أن تجيبي عليه: هل وقع بصرك في هذا القطار على أي شخص تعرفينه؟

فحملقت إلى وجهه لحظة ثم قالت: أنا؟ لا.

- والأميرة دراغوميروف، ألا تعرفينها؟

- آه، الأميرة؟ بلى، أعرفها. لقد ظننت أنك ستسألني عن أي شخص له صلة بتلك الحوادث.

- فكري جيداً يا سيدتي، واذكري أن سنوات كثيرة قد مضت على تلك الحوادث وأن مرور السنين لا بد أنه قد غيّر وجوه الأشخاص الذين أعينهم.

- لا، لم يقع بصري على أحد أعرفه في هذا القطار. أنا واثقة من ذلك.

- وأنت، أنت نفسك عندما كنت فتاة صغيرة في ذلك العهد، ألم تكن لك معلّمة خاصة؟

- كانت معلمتي هي سكرتيرة أختي سونيا.

- وما اسم هذه السكرتيرة؟

ففكرت الكونتيسة لحظة ثم قالت: الآنسة فريبودي، وهي إنكليزية أو اسكتلندية، لا أذكر تماماً وإنما أذكر أنها كانت بدينة

ذات شعر أحمر.

- هل كانت متقدمة في السن؟

- كان يبدو لي أنها متقدمة في السن ، في نحو الأربعين من عمرها.

- هل كان هناك أشخاص آخرون لهم اتصال وثيق بعائلة آرمسترونغ.

- كان هناك الخدم طبعاً.

* * *

الفصل الثامن والعشرون

عندما انصرف الكونت وزوجته تحوّل بوارو إلى زميليه ثم قال وعلى شفتيه ابتسامة: أرايتما كيف نتقدم بسرعة؟

فقال السيد بوك: مهما يكن من أمر...

وقبل أن يُتمّ السيد بوك كلامه فُتح باب مركبة الطعام ثم دخلت الأميرة دراغومиров وذهبت في الحال إلى حيث جلس الرجال الثلاثة، فنهضوا واقفين، ولكنها تجاهلت السيد بوك والدكتور قسطنطين ثم قالت تحدّث بوارو: أعتقد يا سيدي أنك عثرت على منديل يخصني.

فنظر بوارو إلى زميليه نظرة فوز ثم قال محدّثاً الأميرة: هل تعنين هذا المنديل يا سيدتي؟

ثم عرض عليها المنديل الذي عُثر عليه في مكان الجريمة فقالت: نعم، فهذا أنت ترى في أحد أركانه الحرف الأول من اسمي.

- ولكن هذا الحرف يا سيدتي هو حرف الهاء، أما اسمك فيبدأ بحرف النون فهو ناتاليا على ما أعتقد!

فنظرت إليه ببرود ثم قالت: هذا حقيقي يا سيدي، ولكنني أضع على جميع أمتعتي الحرف الأول من اسمي كما أكتبه باللغة الروسية، فحرف النون بالروسية يشبه حرف الهاء اللاتيني.

فقال بوارو: ولكنك لم تذكرني أن هذا المنديل يخصك عندما سألتك في صباح اليوم؟

فأجابت الأميرة بلهجة جافة: أنت لم تسألني عن شيء يا سيدي.

ثم أردفت: أرجو ألا تضخم الأمر يا سيدي، أعلم أنك ستلقي عليّ هذا السؤال: كيف اتفق وجود هذا المنديل في غرفة القتيل؟ أليس كذلك؟ وجوابي على هذا السؤال هو أنني لا أعرف كيف وُضع المنديل في مكان وقوع الجريمة.

- عفواً يا سيدتي، ولكن إلى أيّ حد نستطيع الثقة بكلامك؟

- تعني أنك لا تستطيع أن تثق بكلامي لأنني لم أصرّح لك بأن الكونتيسة هيلين أندريني هي شقيقة السيدة أرمسترونغ؟

- الواقع أنك كذبت علينا في هذا الموضوع.

- بلا شك، وأنا لا زلت على استعداد أن أكذب مرة أخرى من أجلها، فقد كانت أمها من أعز صديقاتي وليس من الغريب أن أكذب لأوفر عليها كثيراً من المتاعب.

- لعلك تقدّرين ظروفِي يا سيدتي. أنت كذبت مرة، فهل أستطيع الآن أن أصدق أقوالك عن هذا المنديل أم أنك لا زلت تكذّبين لتتقذي ابنة صديقتك من تبعه الجريمة؟

فقلت وعلى شفيتها ابتسامة: آه، فهمت ما تعني. ولكن أصغ إليّ يا سيدي: أنا أستطيع أن أبرهن على أن هذا المنديل لي دونّ سواي؛ فأنا أستطيع أن أقدم لك عنوان المصنع الذي أبتاع منه مناديلي في باريس، وأؤكد لك أنه يكفي أن تُظهر للمصنع هذا المنديل ليُقال في الحال إنني صاحبه وإنه أرسل إليّ منذ عام على الأكثر. أجل يا سيدي، هذا المنديل هو منديلي.

ثم نهضت وهي تقول: هل لديك ما تريد أن تسألني عنه؟

- أريد أن أتحدث يا سيدتي، هل عرفتَ خادمك هذا المنديل عندما رأيته معي صباح اليوم؟

- لا بد أن تكون عرفتَه، فهي تقول إنها رأيته معك فأنكرت معرفته؛ فهي تكنّ لي الإخلاص كله، وأنا مغتبطة بذلك.

قالت ذلك ثم أحنت رأسها باحترام ثم غادرت المركبة، وعندئذ غمغم بوارو: لقد تذكرتُ الآن! لقد ترددت الخادمة قليلاً عندما عرضتُ عليها المنديل، ثم قررت أن تكذب فأنكرته. كل هذا حسن لأنه يتفق مع رأيي في الموضوع، والآن يجب أن أستجوب الكولونيل أربنتون مرة ثانية.

أقبل الكولونيل وعلى وجهه علامات الضجر والانزعاج ثم بادر قائلاً: حسناً، هل من جديد؟

فأجاب بوارو: يجب أن أعتذر لك عن إزعاجي إياك، ولكنني في الواقع بحاجة إلى بعض معلومات أعتقد أنك تستطيع أن تقدمها لي، فهل ترى أولاً هذه الفرشاة المعدّة لتنظيف الغليون؟

- نعم.

- هل تخصّصك؟
- لا أعلم لأنني لا أضع على الفرشاة التي أستعملها علامة خاصة.
- ولكن هل تعلم أنك الوحيد الذي يدخن غليوناً من دون المسافرين جميعاً؟
- في هذه الحالة ستكون هذه الفرشاة قد فُقدت منّي.
- هل تعلم أين وُجدت؟
- لا.
- لقد وُجدت بجانب جثة القتيل.
- فرع أربنتوت حاجبیه دهشة في حين مضى بوارو في حديثه فقال: أتستطيع أن تخبرني كيف اتفق وجودها هناك؟
- إذا كنت تريد أن تسألني إن كنتُ أنا الذي تركتها هناك فأنا أجيبك بالنفي.
- هل دخلتَ غرفة راتشيت في وقت ما؟
- أنا لم أتحدث قط مع هذا الرجل.
- لم تتحدث معه، ولم تقتله.
- قال الكولونيل بسخرية: إذا كنتُ قتلته فمن المؤكد أنني أكنم عنك هذه الحقيقة، ولكنني أقول لك إنني لم أقتله.
- مهما يكن من أمر فأنا لا أقيم وزناً لوجود الفرشاة في غرفة القتيل.

- ماذا تعني؟! -

- أعني أنه في الإمكان تبرير وجودها هناك بمبررات شتى ،
فهذه المسألة ثانوية ، غير أنني في الواقع قد دعوتك لأمر آخر .

فحملق الكولونيل في وجهه في حين مضى الشرطي السري
يقول: ألم تخبرك الآنسة ماري دبنهام أنني سمعتُ كلمات قالتها
لك في محطة قونيه .

فصمت أربنتوت ولم يجب فقال بوارو: لقد قالت لك: " ليس
الآن ، ليس الآن ، لا بد أن ينتهي كل شيء أولاً" ، فهل تعلم ماذا
كانت تعني هذه الكلمات؟

- هل سألتها؟

- نعم .

- ورفضت الإجابة؟

- نعم .

- إذن كان يجب أن تعلم أنه ليس في إمكاني أن أقول
شيئاً .

- هل ترى أن في الأمر سرّاً يتعلق بها وأنه ليس من الشهامة
أن تبوح بسرّ إحدى النساء؟ قل ما شئت في تعليل سكوتي ، ولكنني
لن أتكلم .

- لقد قالت لي الآنسة دبنهام إن تلك الكلمات تنصبّ على
أمرٍ خاصّ بها .

- ولماذا لم تصدق كلامها؟

- لم أصدق كلامها لأن حولها ما يشير الشبهات.

فقال أربنتوت بحدة: هذا كلام فارغ؛ أنت لا تملك أي دليل ضدها.

- أوجد دليل أعظم من أنها كانت تعمل في بيت أسرة أرمسترونغ بأمريكا حين اختُطفَت فيه ديزي أرمسترونغ؟

وعندئذ ساد صمت عميق، فأدرك بوارد أن أربنتوت لا يجد ما يقوله، فأطرق برأسه ثم استطرد قائلاً برفق: ها أنت ترى أننا نعرف من أمر الآنسة دبنهام أكثر مما تتصور، فإذا كانت الآنسة بريئة، فلماذا تتعمد إخفاء الحقائق؟ ولماذا تؤكد لي أنها لم تذهب أبداً إلى أمريكا؟

- ألا يجوز أن تكون مخطئاً.

- أنا لست مخطئاً. لماذا كذبت الآنسة دبنهام ولم تذكر الحقيقة؟

فهز أربنتوت كتفيه ثم أجاب: من الخير لك أن تسألها هي، أما أنا فلا زلت أعتقد أنك مخطئ.

وعندئذ دعا بوارد أحد الخدم فقال له: اذهب إلى الغرفة رقم ١١ وقل للسيدة الإنكليزية التي تقيم بها أن تتكرم بمقابلتي هنا.

فانصرف الخادم، وساد سكوت تام، وبعد دقيقتين أو ثلاث أقبلت ماري دبنهام.

* * *

الفصل التاسع والعشرون

تقدمت ماري دبنهام بثبات ورباطة جأش ثم ألقت ببصرها على الكولونيل أربتنوت فالتقت أنظارهما لحظة ثم تحولت إلى بوارو وسألته: هل طلبتَ مقابلي؟

ففاجأها بقوله: أردتُ سؤالك يا آنسة، لماذا تعمدتِ الكذب والتضليل عندما استجوبتك صباح اليوم؟

فهتفت: الكذب! ماذا تعني؟ أنا لا أفهم ما تريد.

- لقد أخفيتِ عنا حقيقة هامة، وهي أنه في الوقت الذي وقعت فيه فاجعة آرمسترونغ كنت أنت في أمريكا تعملين في بيت هذه الأسرة.

وهنا لاحظ أنها انكمشت، لكنها عادت فملكنت نفسها بسرعة ثم أجابت: نعم، هذا صحيح.

- هل تسمحين لي بسؤالك عن الأسباب التي دفعتكِ إلى كتمان هذه الحقيقة؟

- كنتُ أظن أن هذه الأسباب ظاهرة واضحة يا سيد بوارو.
- ولكنني لا أستطيع رؤيتها للأسف.

فقلت بهدوء وبصوت فيه شيء من القسوة: أنا مضطرة للعمل، مضطرة لكسب قوتي بعرق جبينني.

- تعنين...

فحملت في وجهه بحدة وقاطعته بقولها: هل تفهم معنى النضال للحصول على عمل شريف يا سيد بوارو؟ وهل تظن أن الفتاة متى أُذيعت صلتها بقضية جنائية مشهورة ونشرت الصحف صورتها ولاكت الألسن اسمها، هل تظن أن فتاة يحدث لها ذلك تستطيع بعدئذ أن تجد عملاً شريفاً في عائلة محترمة، لا سيما إذا كانت مهمة هذه الفتاة هي تربية البنات؟

- لا أدري ما يحول دون ذلك ما دامت هذه الفتاة شريفة ولا إصعب لها في جريمة من الجرائم.

- ليست المسألة مسألة شرف أو اشتراك في جريمة، وإنما مسألة تشهير. لقد كنتُ (وما زلت) موفقة في عملي، فمن الخطأ إذن أن أضحي بوظيفتي ومستقبلي في سبيل حقيقة لا تفيد أحداً.

- أظن يا آنسة أن تقدير فائدة هذه الحقيقة يجب أن يُوكل إلى المحقق لا إليك أنت.

فهزت كتفيها في حين تابع بوارو: فمثلاً لو أنك ذكرت لي الحقيقة ولم تتعمدي الكذب والتضليل لكان في مقدوري الوقوف بسهولة على حقيقة بعض الشخصيات التي يهمني أن أعرفها. نعم، لو كانت لديك أية رغبة في مساعدة العدالة لما ترددت في أن تقولي لي إن الكونتيسة أندريني هي نفسها أخت السيدة آرسترونغ وإنها نفسها الفتاة التي كنت تشرفين على تربيتها وقت وقوع الفاجعة.

- الكونتيسة أندريني؟ لا، لا، في الحقيقة أنا لم أعرفها، وقد يبدو لك أن في ذلك شيئاً من الغرابة، ولكن الواقع أنها ترعرعت في السنوات الثلاثة الأخيرة فلم أعرفها، وقد خُيل إليّ عندما رأيْتُها في هذا القطار أنها تذكّرني بشخص أعرفه ولكنني لم أتذكر قط الفتاة التي كنت أُشرف على تربيتها في أمريكا.

- أَلن تبوحي لي بسرّك يا آنسة؟

قال ذلك برفق وعطف فأجابته بصوت ضعيف: لا أستطيع، لا أستطيع.

ثم دفنت وجهها بين يديها فجأة وانخرطت في البكاء، فوثب إليها الكولونيل ووقف إلى جانبها وراح يقول: ماري، بالله عليك، ماذا حدث؟

فكفكت دمعها وقالت: لا شيء، لا شيء، اطمئن. هل أنت بحاجة إليّ يا سيد بوارو؟ إذا أردتني فابعث إليّ. يا إلهي، ما أشد غبائي!

أما الكولونيل فقد تريت قليلاً ثم التفت إلى بوارو فقال له: يجب أن تضع الآنسة دبنهام فوق كل شبهة. هل فهمت؟ وإذا خطر لك أن تضايقها بعد الآن فثق أنني سأحاسبك حساباً عسيراً.

ثم خرج في إثرها، وعندئذ هتف بوك: أنت عظيم يا بوارو، في الحقيقة أنت بارع! غاية البراعة في الاستنتاج وحل الألغاز الخفية.

- أنا في الواقع لم أستنتج شيئاً، بل الفضل كله للكونتيسة أندريني.

- كيف ذلك؟!

- ألا تذكر أنني سألتها عن مربيتها؟ لقد ألقيتُ عليها ذلك السؤال لأنني قلت لنفسني إذا كان للآنسة دبنهام إصبع في الجريمة فلا بد أنها كانت على اتصال بعائلة آرمسترونغ، وبما أنها تعمل بتربية بنات العائلات العريقة فلا بد إذن أنها كانت مربية للكونتيسة في صغرها.

- هذا كلام معقول، ولكنني أذكر أن الكونتيسة ذكرت عن مربيتها أوصافاً تختلف كل الاختلاف عن أوصاف الآنسة دبنهام.

- أجل، لقد وصفتها بأنها امرأة متوسطة العمر طويلة القامة ذات شعر أحمر، وهي أوصاف ماري دبنهام تماماً، ولكنني عندما سألتها عن اسم المربية تورطت بالرغم منها في خطأ كشف لي عن الحقيقة، فقد قالت إن المربية تُدعى الآنسة فريبودي، أليس كذلك؟

- بلى.

- هناك حقيقة ربما تجهلها، وهي أنه كان يوجد في لندن حتى عهد قريب متجر كبير لملابس السيدات يملكه رجلان هما دبنهام وفريبودي، فلما سألتُ الكونتيسة عن مربيتها تذكرت في الحال أن اسمها دبنهام، ولكنها أرادت أن تضعنا أمام سلسلة لا نهاية لها من الألغاز والأحاجي بقصد تضليلنا فبحثت بسرعة عن اسم تنطق به، وكان أسبق الأسماء إلى ذهنها ولسانها هو اسم فريبودي لاقتراانه باسم دبنهام.

- إذن فقد كذبت الكونتيسة مرة ثانية؟

- ربما كانت حسنة النية في هذه المرة، غير أن كذبها كان من شأنه عرقلة أعمالنا.

فهتف السيد بوك: يا إلهي! يُخَيَّلُ إِلَيَّ أنه لا أحد في هذا القطار الملعون يقول الصدق.

فقال بوارو وهو يبتسم: وهذا في الواقع ما يثير فضولي لمعرفة الحقيقة.

ثم بعث بوارو في طلب أنطونيو فوسكاريللي الإيطالي الذي أقبل مسرعاً وعلى وجهه علامات القلق والانزعاج، ثم أجال الطرف حوله كما يفعل الحيوان المحرّج ثم قال محدثاً بوارو: ماذا تريد منّي؟ ليس عندي ما أقوله. يا إلهي، ما هذه المضايقات؟!

فقال بوارو بحزم: بل عندك الحقيقة التي نبحت عنها، أريد الحقيقة.

فنظر إلى بوارو بحدة ولكنه لم ير أثراً من آثار اللطف والدعة فأسقط في يده وانكمش في مكانه فتابع بوارو: أريد الحقيقة. يُحتمل أن أكون قد عرفتُها من تلقاء نفسي، ولكن من الخير لك أن تبوح بها.

- أنت تتكلم كما يتكلم رجال الشرطة في أمريكا.

- آه، إذن فقد سبق أن كان للشرطة الأمريكية شأن معك؟

- إطلاقاً، إطلاقاً... لم يجدوا أيّ دليل ضديّ.

فقال بوارو بهدوء: لقد وقعت بين يدي الشرطة الأمريكية في أثناء التحقيق في حادث اختطاف ديزي آرمسترونغ لأنك كنتَ

سائق سيارة العائلة، أليس كذلك؟

ثم نظر في عيني الإيطالي بحدّة فلاحظ في الحال أن وجهه قد امتنع فقال فوسكاريللي: لماذا تسألني ما دمت تعرف الحقيقة؟

- ولماذا كذبت عندما استجوبتك صباح اليوم؟

- كذبتُ لأسباب تتصل بمركزي وعملي، أضف إلى ذلك أنني لا أثق برجال الشرطة اليوغوسلافية، فأنت تعرف أن رجال الشرطة اليوغوسلافية يكرهون الإيطاليين، وقد فكرتُ في أنني إذا وقعتُ بين أيديهم فسوف ينكلون بي، وأنا بريء.

- من يدري؟

- لا، لا، أؤكد لك أنني بريء؛ أنا لم أغادر فراشي ليلة وقوع الجريمة، وذلك الإنكليزي الذي يقيم معي في الغرفة يشهد بذلك.

فكتب بوارو بعض كلمات على ورقة أمامه ثم رفع رأسه وقال بهدوء: حسناً تستطيع أن تذهب.

فانصرف الإيطالي وأمر بوارو خادماً المركبة بأن يدعو السيدة السويدية التي تقيم بالغرفة رقم ١٠، وعندئذ قال السيد بوك: أتظن أن لها صلة قديمة بأسرة آرمسترونغ؟ هل يمكن هذا؟ أظن أن هذا مستحيل!

- يجب أن نحاول معرفة كل شيء، حتى ولو دعا الأمر إلى الارتياح في جميع المسافرين، فمتى عرفنا كل شيء استطعنا تحديد المسؤولية ومعرفة الفاعل.

أقبلت السيدة السويدية غريتا أولسون ففاجأها بوارو بقوله:
لقد كنت تشغلين وظيفة خادمة في دار أسرة آرمسترونغ، وكان
منوطاً بك العناية بالطفلة ديزي، أليس كذلك؟

فأجابت: بلى، هذا حقيقي. لقد كانت ملاكاً يا سيدي، وأؤكد
لك أنها كانت ملاكاً لا تعرف غير الحب والعطف، وقد اختطفها
ذلك المجرم الأثيم وقتلها فقتل معها والدتها ووالدها. لا تستطيع
أن تتخيل الحقيقة يا سيدي... لقد كنتُ هناك فرأيت كل شيء،
وسرّني الآن أن أعرف أن هذا الرجل الأثيم قد قُتل.

فقال لها بوارو بلطف: أنا أقدرُ نبل عواطفك يا آنسة، ويسرّني
أنك اعترفتِ بالحقيقة فلا داعي لإرهاقك بالأسئلة.

فنهضت وهي تبكي، وعندما اقتربت من الباب أوشكت
أن تصطدم بماسترمان خادم راتشيت الذي دخل المركبة مهرولاً.
ذهب ماسترمان مباشرة إلى حيث جلس بوارو وقال بكل هدوء:
أرجو ألا أكون متطفلاً يا سيدي، فقد رأيتُ أن أتقدم بنفسي
لأعترف بكل شيء لأريح ضميري. لقد عُيِّنْتُ ملحقاً بخدمة
الكولونيل آرمسترونغ في خلال الحرب، وعندما وضعت الحرب
أوزارها ألحقني الكولونيل بخدمته في نيويورك، وأنا آسف جداً
لأنني كتمت عنك هذه الحقيقة عندما استجوبتني صباح اليوم،
وقد علمتُ أنني ارتكبت غلطة جسيمة فجئت لأصلحها الآن،
ولكنني أرجو يا سيدي ألا يداخلك شك في أنطونيو فوسكاريللي،
ذلك الزميل القديم؛ فهو رجل طيب القلب لا يستطيع أن يؤذي
ذبابة، وأؤكد لك وأقسم إنه لم يغادر فراشه ليلة أمس، أي أنه من
المستحيل أن يكون هو الذي قتل راتشيت.

- أهذا كل ما عندك؟

- نعم يا سيدي.

وتريث لحظة ثم أحنى قامته وانصرف ، وعندئذ نظر الدكتور
قسطنطين إلى زميله بدهشة وقال: هذا أعجب مما قرأتُ في أية
قصة خيالية!

فنظر إليه بوارو وقال وهو يتسم: ولكن أخبرني ، ألم تفهم
شيئاً حتى الآن؟ ألم تعرف من الذي قتل السيد راتشيت؟

- هل تعرف أنت؟

فأجاب بوارو: نعم ، لقد عرفته ، وعرفته قبل الآن بساعات ،
ولهذا يدهشني كيف لم يفهم أحدٌ منكما الحقيقة حتى الآن!

ثم نظر إلى السيد بوك وقال له: أرجو أن تتفضل بدعوة جميع
المسافرين إلى هنا؛ فلي في هذه القضية رأيان أحب أن أعرضهما
عليكم جميعاً.

أقبل المسافرون جميعاً إلى مركبة الطعام فجلسوا حول
الموائد ، وكان الناظر إليهم يقرأ في وجوههم شيئاً واحداً ، القلق ، ثم
نهض بوارو واقفاً فساد صمت عميق ، ثم قال بوارو بصوت هادئ:
اسمحوا لي أن أتكلم الإنكليزية لأنكم جميعاً تفهمون هذه اللغة.

ثم أدار بصره في وجوههم جميعاً ثم قال: لقد أخذت على
عاتقي مهمة البحث عن قاتل صموئيل إدوارد راتشيت الشهير
بكاسيتي ، فوفقت إلى تعليلين للجريمة سأعرضهما عليكم ،
ولكنني أترك للسيد بوك والدكتور قسطنطين أن يحكما أيهما
أصلح. أنتم تعلمون جميعاً تفصيلات القضية ، فقد وُجد راتشيت

قتيلاً في غرفته صباح اليوم، وثبت أنه كان حياً يُرزق حتى الساعة ١٢ والدقيقة ٣٧، وهو الوقت الذي تكلم فيه مع ملاحظ مركبات النوم. وقد وجدنا في أحد جيوبه ساعة مهشمة وقف عقرباها على الساعة الواحدة والرابع، فقرر الدكتور قسطنطين الذي فحص الجثة أن الوفاة حدثت بين منتصف الليل والساعة الثانية صباحاً، ومن الثابت أن القطار تعطل في منتصف الساعة الواحدة؛ فمن المستحيل أن يكون أحد الناس قد استطاع مغادرة القطار بعد أن تعطل لأن الثلوج تحيط بالمركبات من كل ناحية.

وصمت برهة قبل أن يستطرد قائلاً: ويُفهم من شهادة السيدة هاردمان (وهو شرطي سري يعمل لحساب شركة كبيرة في نيويورك) أن أحداً من المسافرين لم يكن في مقدوره أن يغادر المركبة دون أن يراه هو (أي السيد هاردمان) لأنه كان يشغل الحجرة رقم ١٦، وقد قضى الليل كله ساهراً، لذا يتعين أن نعتقد أن القاتل لا بد أن يكون أحد المسافرين بعربة النوم المعروفة باسم عربة إسطنبول-كاليه.

ونظر إلى السيد بوك والطبيب ثم استطرد قائلاً: تلك كانت النظرية في بداية الأمر، ولكن ظهرت بعد ذلك نظرية ثانية تنهض على الأدلة والحقائق التي عثرنا عليها، فقد ثبت لنا أن راتشيت كان يخشى عدواً بعينه، حيث ذكر للسيد هاردمان أوصاف ذلك العدو، فقال له إنه يخشى أن يقع اعتداء على حياته، ثم حدّد موعد الاعتداء بأنه الليلة الثانية بعد أن يغادر القطار محطة إسطنبول، وأنا أؤكد لكم أيها السادة أن السيد راتشيت كان يعرف من أمر عدوه أكثر مما قال، فقد تسلسل هذا العدو إلى القطار (في محطة بلغراد وربما في محطة فنكوفكي) من الباب الذي تركه الكولونيل أربنتوت

والسيد ماكوين مفتوحاً عندما نزلا إلى الرصيف، وكان هذا العدو مزوّداً بثوب مستعار من ثياب موظفي مركبات النوم، وكذلك كان مزوّداً بمفتاح مكّنه من دخول غرفة راتشيت، رغم أن هذا الأخير كان قد أوصد بابه قبل أن ينام، وكان السيد راتشيت قد وقع تحت تأثير مخدر تناوله أو وُضع له في الشراب، فطعنه عدوّه عدة طعنات قوية ثم خرج من الباب المؤدي إلى غرفة السيدة هوبار.

وهنا هزّت السيدة هوبار رأسها ثم غمغمت: لا بد أن يكون الأمر كذلك.

ثم مضى بوارو يقول: وعندما دخل غرفة السيدة هوبار وقع بصره على حقيبتها، فوضع فيها الخنجر الذي استعمله في الجريمة، وفقد دون أن يشعر زراً من أضرار ثوبه، ثم خرج إلى رواق المركبة من خلال باب السيدة هوبار، ثم وضع الثوب في حقيبة بغرفة وجدها خالية من صاحبها، ثم ارتدى ثيابه العادية وترك القطار قبل أن يغادر المحطة، وكان خروجه من الباب القريب من مركبة الطعام لا من الباب المواجه للغرفة رقم ١٦ التي جلس عندها السيد هاردمان.

وهنا صاح السيد بوك: هذا غير معقول، تريد أن تقول إن الجريمة ارتكبت قبل أن يتعطّل القطار؟ إذن بماذا كيف تفسّر صوت الرجل الذي تحدث مع ملاحظ مركبات النوم في الساعة الواحدة والدقيقة ٢٣؟ فهذا الصوت إما أن يكون صوت راتشيت نفسه، أو أن يكون صوت الرجل الذي فتك به.

فأجاب بوارو: ليس من الضروري أن يكون صوت هذا أو ذاك، فربما كان صوت شخص ثالث دخل إلى غرفة راتشيت

ليحدث إليه ، ثم وجد راتشيت قتيلاً فدقّ الجرس بقصد الاستغاثة بملاحظ مركبات النوم ، ثم عاد فخشي أن يُتهم بارتكاب الجريمة ، فلما أقبل ملاحظ مركبات النوم ودق الباب قال له ذلك الشخص إنه لا يريدُه وإنه دق الجرس خطأ.

فقال السيد بوك بلهجة المحنّق: هذا ممكن.

وبعد صمت قصير نهض الدكتور قسطنطين وهو يصيح: لا ، لا ، هذا غير ممكن ، هذا التعليل غير معقول ؛ هناك أشياء كثيرة لا يفسرها هذا التعليل.

فابتسم بوارو وقال: ربما ، ولكن يجب أن تذكر هذا الحل جيداً ، فقد تضطر في نهاية الأمر إلى أن توافق عليه.

ثم تحوّل إلى الآخرين فاستطرد: ويوجد إلى جانب هذا الحل حل آخر سأذكره لكم ، وسأذكر كيف وصلت إليه.

عندما استجوبتُ المسافرين جميعاً وسمعتُ أقوالهم وفكرتُ فيها ، لاحظتُ أن هناك بعض الأمور التي تستحق إمعان النظر ، فعرضتها على صديقي السيد بوك والدكتور قسطنطين. ولا داعي للتكرار الآن ، ولكنني أشير إلى بعض ملاحظات أخرى ، كان أهمها الملاحظة التي أبدّاها السيد بوك حين قال لي بعد أن غادرنا إسطنبول إن عربة النوم تجمع فئة غريبة من قوم مختلفي الجنس قلّ أن يجتمعوا في مكان آخر ، وقد سألتُ نفسي: أحقّ أن مثل هذه الفئة لا يمكن أن تجتمع في أي مكان آخر؟ ثم اهتديت إلى جواب وتنهت إلى أن بيوت الأسر الكبيرة في أمريكا تضمّ بين جدرانها عادة أقواماً مختلفي الجنس واللغة ؛ فسائق السيارة إيطالي والمربية إنكليزية والوصيفة فرنسية والخادمة سويدية... وعندما اهتديتُ

إلى هذا الجواب أمكنني أن أسند إلى كل واحد من المسافرين الوظيفة التي يُحتمَل أن يكون قد شغلها في بيت أسرة آرمسترونغ، فخرجتُ من ذلك بنتيجة مُطمئنة، وكذلك شرعتُ أفحص أقوال كل شخص، فوفقتُ إلى ما يدعم النتيجة الأولى. من ذلك مثلاً أنني استجوبت السيد ماكوين مرتين، ففي المرة الأولى كانت أقواله على ما يرام، ولكنه أبدى في المرة الثانية ملاحظة لفتت نظري؛ فعندما ذكرتُ له أنني عثرت على ورقة تشير إلى حادث اختطاف ديزي آرمسترونغ في غرفة القتل دُهِش وأجاب: "ولكن من المؤكّد..."، ثم عاد فضبط لسانه وأردف: أعني أن القتل لا بد وأن يكون قد أهمل هذه الورقة.

بدا التوتر على وجه السيد ماكوين في حين استطرّد بوارو: فشعرتُ في الحال أنه أراد أولاً أن يقول: "ولكن المؤكد أن هذه الورقة قد أُحرقت"، ففهمتُ من ذلك أن ماكوين كان يعلم بأمر هذه الورقة فأمر بإحراقها، أو بمعنى آخر أنه هو الذي ارتكب الجريمة أو اشترك في ارتكابها. ثم اكتشفت بعد ذلك أمراً آخر في شهادة ماسترمان خادم القتل، فقد قال لي ماسترمان إن القتل اعتاد أن يتناول مخدراً في أثناء السفر، وقد يكون هذا حقيقة، ولكن هل يُعقل أن يكون راتشيت قد تناول المخدر ليلة أمس؟ يتعارض هذا تماماً مع وجود المسدس تحت وسادته، فمما لا شك فيه أن راتشيت كان ينوي الاحتراس ليلة أمس، فإذا كان قد تناول مخدراً فهو لم يتناوله من تلقاء نفسه بل يكون المخدر قد وُضع له دون علمه، أما الذي وضع له هذا المخدر فهو غير شك أحد اثنين: إما ماكوين أو ماسترمان.

فتبادل ماكوين وماسترمان نظرة لا معنى لها في حين أكمل

بوارو: والآن أنتقل إلى شهادة السيد هاردمان، وقد آمنتُ بكل ما ذكره عن اسمه وشخصيته ومهنته، ولكنني ارتبت كل الارتباب في الطريقة التي اتبعها لحراسة القتل؛ ذلك لأن الطريقة الوحيدة المضمونة هي أن يقضي هاردمان الليلة في غرفة راتشيت أو على مقربة منها بحيث يتسنى له مراقبة بابها، ولكنني فهمتُ من شهادته -إلى جانب ذلك- مسألة على جانب عظيم من الأهمية، وهي أن أحد المسافرين في المركبات الأخرى بالقطار لا يمكن أن يكون قد دخل إلى المركبة التي وقعت فيها الجريمة وأن المجرم لا بد أن يكون أحد المسافرين بالمركبة التي فيها غرفة راتشيت، ولم أوفق إلى معرفة غرض هاردمان من هذا التحديد في بادئ الأمر، ولكنني عرفت هذا الغرض فيما بعد، وسأذكره في حينه.

ثم التقط بوارو نفسه وهو يرتّب الأفكار في رأسه ثم عاد يكمل: لقد تحدثتُ عن الكلمات التي تمّ تبادلها بين الأنسة ماري دنبهام والكولونيل أربتنوت، ولكنني ظلت أرتاب في معناها حتى استجوبت الأنسة دنبهام للمرة الثانية أو الثالثة وواجهتها ببعض الحقائق، وعندئذ دعاها الكولونيل باسمها ماري، ففهمت من ذلك أن الصلة بين الاثنين هي في الواقع أوثق مما كنت أظن، فقد كان المفهوم أو المفروض أن الاثنين لم يتقابلا إلا منذ أيام، ولما كنتُ أعرف طباع الإنكليز أمثال الكولونيل وأعلم أنهم لا يندفعون وراء عواطفهم بسرعة أدركت في الحال أن الصلة بين الاثنين قديمة ووثيقة، وأنهما -لسبب ما- يتظاهران بأنهما غريبان. كذلك فهمت من ألفاظ نطقت بها الأنسة ماري دنبهام ولا ينطق بها غير الأمريكيين أن الأنسة زارت أمريكا وقضت فيها وقتاً على الرغم من إنكارها هذه الحقيقة.

خففت الآنسة دبنهام رأسها قليلاً في حين أكمل بوارو:
والآن أنتقل إلى شهادة السيدة هوبار فأقول إنها أكدت أنها لم
تستطع وهي في فراشها أن تتأكد من حالة المزلاج نظراً لوجوده
تحت الحقيبة المدلاة من مقبض الباب، وأنها طلبت من السيدة
أولسون أن تتأكد من أن الباب مغلق بالمزلاج. وكلام السيدة هوبار
يكون صحيحاً إذا كان رقم غرفتها ٢ أو ٤ أو ١٢ أو أي رقم زوجي
لأن المقبض في الغرف الزوجية يقع حقيقة فوق المزلاج، أما في
الغرف الفردية فيقع تحت المزلاج، وهي تقيم في غرفة فردية،
فالحكاية التي سردتها مفتعلة من أولها إلى آخرها.

ف نظرت السيدة هوبار حولها بحرج واستطرد بوارو: والآن
سأتكلم عن الوقت الذي وقعت فيه الجريمة فأقول إن وجود
الساعة في جيب القتل شيء غريب جداً، لأنه يوجد مكان خاص
لوضع الساعة بجانب الفراش. إذن فالساعة وُضعت في جيب
القتيل وأوقفت عقاربها عند الساعة الواحدة والربع بقصد التضليل
والتمويه لا غير، والسؤال الآن: هل ارتكبت الجريمة قبل هذا
الوقت أم بعده؟ أو بمعنى آخر، هل ارتكبت في الساعة الواحدة
إلا ٢٣ دقيقة (وهو الوقت الذي سمعتُ في الصيحة التي أيقظتني
من نومي)؟

صمت بوارو هنيهة وهو يتابع تأثير حديثه على أوجه سامعيه،
ثم عاد يتابع قائلاً: ولكن ما دام راتشيت قد تناول مخدراً فلا يمكن
أن يكون قد استغاث، إذ لو استطاع الاستغاثة لأمكنه أن يقاوم
وأن يدافع عن نفسه، غير أنني لم أرَ على الجثة أي أثر من آثار
المقاومة، وأنا أتذكر الآن أن السيد ماكوين قد لفت نظري مرتين
إلى أن راتشيت لا يتكلم الفرنسية، ففهمتُ أن الحكاية مدبرة

لحملي على الاعتقاد بأن الشخص الذي سمعته يتكلم قبيل الساعة الواحدة لا بد أن يكون القاتل وأن راتشيت لا بد وأن يكون قد قُتل قبل ذلك. ولكنني واثق الآن أن راتشيت كان في ذلك الوقت لا يزال مستغرقاً في النوم تحت تأثير المخدر، غير أن الحيلة نجحت في وقتها لأنني فتحتُ باب غرفتي فسمعت الكلام الذي نطق به صاحبه بالفرنسية. والسؤال الآن: متى ارتُكبت الجريمة بالضبط؟ ومن هو المجرم؟ أنا أعتقد أن راتشيت قُتل قبل الساعة الثانية بدقائق، ورأي الطبيب يؤيد نظريتي، أما عن القاتل...

وهنا صمت لحظة ثم أجال الطرف بين المسافرين فوجدتهم جميعاً ينصتون إليه باهتمام وينتظرون بفروغ صبر كل كلمة ينطق بها فأردف: لقد لفت نظري استحالة إثبات الجريمة على شخص بعينه، ولفت نظري -على الأكثر- أن كل مسافر استطاع أن يجد من شهادة غيره ما ينفي عنه التهمة، فالسيد ماكوين والكولونيل أربتنوت مثلاً قد تمكن كل منهما من أن ينفي التهمة عن الآخر، فكانت أقوال كل منهما قابلة للتصديق لأنه لا يبدو في الظاهر أن لأحدهما علاقة سابقة بالآخر. كذلك كان الحال مع ماسترمان وأنطونيو، ومع السيدة السويدية والآنسة دبنهام... فقلتُ لنفسي إنه لا شك أن هذا أمر خارق للعادة؛ إذ لا يُحتمل أن يكون المسافرون جميعاً قد اتفقوا على ارتكاب الجريمة، ولكن عندما قلتُ لنفسي ذلك تجلّت لي الحقيقة أيها السادة، فعرفتُ في الحال أن المسافرين جميعاً قد اتفقوا على قتل راتشيت بالفعل، لأن سفر أشخاص كثيرين مختلفين لهم صلة بعائلة آرمسترونغ في نفس القطار الذي يسافر فيه راتشيت ليس مجرد اتفاق، بل من المستحيل أن يكون مجرد اتفاق... إذن فقد كان هناك تدبير، وتدبير محكم.

كانت الأوجه جامدة كأن المستمعين تحوّلوا إلى تماثيل وهم ينظرون إلى بوارو الذي أكمل: ثم قلتُ لنفسي إن راتشيت ارتكب في أمريكا جريمة شنيعة منكّرة، وقد استطاع الإفلات من العدالة بالهرب من السجن بواسطة ذوي النفوذ، فهل يبعد أن يكون اثنا عشر شخصاً ممّن روعتهم جريمته قد عقدوا فيما بينهم محكمة على نمط محاكم المحلّفين فأصدروا حكمهم عليه بالإعدام، ثم اقتضت الظروف أن يساهموا جميعاً في تنفيذ الحكم؟ لا، لا يبعد ذلك، فرأيتُ الحقيقة حينئذ ولمستها بيديّ، وعرفتُ الدور الذي أُسند إلى كل من المتأمّرين، وفهمتُ أن الاتفاق قد تم بينهم على أنه إذا انحصرت الشبهة في أحدهم يتقدم الآخرون لإبعاد هذه الشبهة عنه ولتضليل المحققين. ولكن هل تؤيد الأدلة هذه النظرية؟ نعم، تؤيدها، وطبيعة الجروح تدلّ على أن كل جرح قد أحدثه شخص مختلف. أما حكاية خطابات التهديد التي تسلمها القاتل قبل مصرعه فقد كانت مفتعلة وكان الغرض منها أيضاً تضليل المحققين، وأما شهادة هاردمان التي أكّد فيها أن القاتل طلب منه أن يحرسه فهي أكذوبة من أولها إلى آخرها، والغرض منها كذلك التضليل وإقناع المحقق بأن القاتل رجل قصير القامة صوته كأصوات النساء.

صمت بوارو لحظة وهو يحني رأسه ثم عاد يقول: ولعل فكرة قتل راتشيت بهذه الطريقة هي من أعجب ما يمكن أن يخطر بالبال، وقد وقع الاختيار على الخنجر لأن الخنجر لا يُحدث الضجة التي يحدثها الطلق الناري. والآن أستطيع أن أرى المسافرين بعين الخيال وهم يتسللون إلى غرفة راتشيت من خلال غرفة السيدة هوبار، فيطعنه الواحد تلو الآخر دون أن يعلم أحدهم أية طعنة كانت القاضية، وأعتقد أن خطاب التهديد الوحيد الذي وصل إلى

يد القتل هو ذلك الخطاب الذي عثرتُ على بقاياه بعد إحراقه ، وقد ظن المتآمرون أن إحراق هذا الخطاب سيزيل الشبهة عنهم جميعاً ويجعلهم في مأمن من الاتهام ويصرف ذهن المحقق إلى أن القاتل ليس من بين المسافرين وأنه رجل قصير القامة يتكلم بصوت كأصوات النساء وأن هذا القاتل قد تسلل إلى القطار فارتكب جريمته وهرب في محطة برود ، ولا أعلم على وجه التحقيق متى اكتشف المتآمرون فشل هذا الجزء من تدبيرهم بسبب تعطل القطار وعدم وصوله إلى محطة برود ، ولكن من المؤكد أنهم تشاوروا فيما بينهم بسرعة ووضعوا خطة العمل لتضليل التحقيق .

وعقد كفيّهِ وراء ظهره وهو يسير ببطء بين الركّاب ثم عاد يقول: ولهذا الغرض وضع المتآمرون دليلين في غرفة القتل ، أحدهما فرشاة الغليون التي توجّه التهمة إلى الكولونيل أربنتون الذي تقوم الأدلة الكافية على براءته ولا يوجد أي دليل على أن له سابقة بأسرة آرمسترونغ ، وثانيهما منديل الأميرة دراغومиров التي لها مركزها في الهيئة الاجتماعية وضعفها الجسماني وشهادة وصيبتها ما ينفي عنها كل تهمة . ثم إنهم دبّروا بعد ذلك حكاية المرأة ذات الوشاح الأحمر وأحدثوا الصوت الذي جعلني أفتح باب غرفتي وأطلّ منه فأرى تلك المرأة التي شهد على وجودها أشخاص كالآنسة دبنهام وماكوين وغيرهما ممن لا يتطرّق إلى ذهن فكرة وجود تفاهم بينهم ، وبلغ من جرأة أحد المتآمرين أنه وضع الوشاح الأحمر في حقيبتني مبالغاً في تضليلي . ولست أدري على وجه التحديد صاحبة الوشاح ، ولكنني أعتقد أنه وشاح الكونتيسة أندريني لأنني وجدتُ في حقائبها وشاحاً واحداً يصلح للمنزل لا للقطار .

بدأت الدهشة على وجه الكونتيسة وكأنها تعلن صحة ما قاله بوارو الذي عاد يقول: ولا شك أن السيد ماكوين ما كاد يعلم أن الخطاب لم يُحرَق كليّةً وأنني تبينْتُ فيه كلمة آرمسترونغ حتى هرول إلى زملائه فنقل إليهم هذا الخبر المزعج، فوجدت الكونتيسة في الحال أن مركزها أصبح محرّجاً، فأقدم زوجها على تزوير جواز السفر ليُبعد عنها كل ريبة. وقد تم الاتفاق بين المتآمرين جميعاً على أن ينكروا صلتهم بأسرة آرمسترونغ اعتقاداً منهم بأنني لا أملك وسائل التحقيق.

صمت بوارو برهة وهو ينظر في أوجه الركاب مرة ثانية، ثم عاد يقول: هذه هي نظريتي في جريمة مقتل راتشيت، فإذا كانت صحيحة (واعتقادي أنها صحيحة) وجب أن يكون لبير ميشيل ملاحظ مركبات النوم إصبع في الجريمة، وهذا يجعل عدد المتآمرين الذين طعنوا القتل ١٣ لا ١٢، إذن فلا بد أن يكون هناك شخص لم يشترك فعلياً في ارتكاب الجريمة ولم يطعن القتل، فمن هذا الشخص؟ استنتجت أن هذا الشخص البريء لا بد أن يكون أقرب الناس اتصالاً بالجريمة وصاحب المصلحة الحقيقية في ارتكابها، أعني الكونتيسة أندريني. وقد أكد الكونت بصفة لا تقبل الشك أن زوجته لا إصبع لها في الجريمة، ففهمتُ من ذلك أن الكونتيسة بريئة فعلاً وأن زوجها لا بد أنه قد قام بدورها. إذن كان بيير ميشيل أحد الذين تأمروا على راتشيت وأحد الذي اشتركوا في قتله، ولكن كيف يمكن تفسير هذا الاشتراك؟ إنه رجل وديع وقد قضى في خدمة شركة مركبات النوم عدة سنين، وهو -فوق ذلك- ليس بالرجل الذي تتم رشوته لتسهيل ارتكاب إحدى الجرائم، إذن فلا بد أن تكون له صلة بأسرة آرمسترونغ. وعندئذ تذكرتُ أن المربية التي انتحرت كانت فرنسية، فقلت لنفسي: ألا

يُحتمل أن تكون المربية التي انتحرت هي ابنة بيير ميشيل؟ فوجدتُ أن هذه الحقيقة تفسر كل شيء، كما أنها تفسر أسباب اختيار هذا القطار لارتكاب الجريمة.

ثم صمت لحظة وهو يعقد كَفِّه خلف ظهره ويرفع صوته وهو يستطرد: والآن أظن أنني أوضحت كل شيء يتصل بشخصيات المتأمرين، ويبقى أن أحدد فقط مركز الكولونيل أربنتوت وهلدغارد شميد وهاردمان والسيدة هوبار. فأما الكولونيل فأنا مقتنع بأنه كان صديقاً للكولونيل آرمسترونغ. وأما هلدغارد شميد فقد فهمت من حديثها أنها تجيد طهو الطعام (وإن كانت قد حاولت أن تقنعني بأنها تعمل وصيفة منذ عشرات السنين)، وعليه فإن مركزها في بيت آرمسترونغ كان بغير شك مركز الطاهية. أما السيد هاردمان فقد أيقنتُ أنه لم يتصل عن قرب بعائلة آرمسترونغ، وكل ما استطعت استنتاجه هو أنه ربما كان يحب المربية الفرنسية التي انتحرت، والدليل على ذلك أنني كلمته مرة عن جمال النساء غير الأمريكيات فأشاح وجهه واغرورقت عيناه بالدموع.

ثم التفت إلى السيدة هوبار وقال: تبقى السيدة هوبار، وأستطيع أن أقول إن دورها في هذه المأساة كان أهم الأدوار؛ ذلك لأن وجودها في الغرفة المجاورة لغرفة راتشيت كان من شأنه أن يُخرج مركزها أمام المحقق وأن يعرضها لأقوى الشبهات، ولكنها أنقذت نفسها أو حاولت أن تُنقذ نفسها بتمثيل دور المرأة الخائفة المرتعدة، وهو دور يحتاج إلى ممثلة قديرة، وقد بحثت في ذهني عن ممثلة لها اتصال بعائلة آرمسترونغ فاهتديت في الحال إلى أن والدلة السيدة آرمسترونغ هي الممثلة الأمريكية الذائعة الصيت ليندا آردن.

وهنا صمت بوارو وتحولت جميع الأنظار إلى السيدة هوبار التي نهضت في الحال وراحت تقول بصوت هادئ: لقد كنتُ دائماً أجد القيام بمثل هذا الدور، ولكنني أخطأت حقاً في مسألة المزلاج والحقيية؛ فلم يخطر ببالي أن موضع المزلاج في الغرفة الزوجية يختلف عنه في الغرفة الفردية. ومهما يكن من أمر فأنا لا يسعني إلا أن أهتلك يا سيد بوارو. أنت رجل عجيب حقاً! لقد استطعت أن تعرف كل شيء، ولكنني مع ذلك أرتاب في أنك تستطيع أن تتصور ذلك اليوم الهائل الذي مرّ بنا في نيويورك أمام جثة ديزي أرمسترونغ! لقد شهد الخدم جثتها وكذلك شهدها الكولونيل أربنتوت الذي كان من أعزّ أصدقاء الكولونيل أرمسترونغ.

وعندئذ انحدرت دمعة من عينيها وهي تقول: ولقد جُنّ جنوني بعد هذا الحادث الذي وقع لحفيدتي وبرّح بي الحزن لوفاة ابنتي وزوجها، وكذلك كان شأن المتصلين بعائلة أرمسترونغ جميعاً، فتم الاتفاق فيما بيننا على أن ننتقم من كاسيتي وأن ننقذ فيه حكم الإعدام إذا استطاع أن يفلت منه. وقد استطاع الإفلات منه فعلاً وأفلت من السجن مع زميل له بمساعدة بعض ذوي الشأن ممن كان راتشيت يعرف أسرارهم، فنقلوا إليه في السجن السلاح الذي مكّنه مع أحد أفراد عصابته من الفرار بأن أطلقا النار على الحراس وفرّا، ثم قُتل زميل كاسيتي برصاص أحد الحراس، أما قاتل ديزي فقد تمكن من الإفلات.

ثم مسحت دمعتهما وقالت: كنا اثني عشر شخصاً، أو بمعنى آخر أحد عشر شخصاً لأن والد سوزان كان يقيم في فرنسا، وقد خطر لنا أولاً أن نعيّن بالاقتراع من يتولى الفتك بكاسيتي، ثم اقترح أنطونيو أن نشترك كلنا في ذلك، ثم قامت الأنسة ماري

دبنهام بعمل الترتيب اللازم بالاتفاق مع هكتور ماكوين الذي كان يخلص الإخلاص كله لابتني سونيا. وقد اقتضى إحكام التدبير وقتاً طويلاً، فقد كان علينا أن نتعقب راتشيت وقام السيد هاردمان بهذه المهمة، ثم كان علينا أن نلحق ماكوين وماسترمان بخدمته، فتمكنا من ذلك أيضاً، ثم قابلنا بيير ميشيل والد سوزان وتمّ التفاهم بيننا وبينه، وقد أصر الكولونيل أربتنوت على ألا يقل عدداً عن اثني عشر شخصاً كعدد المحلفين في المحاكم حتى تتخذ الجريمة صفة العدالة، ولم يوافق على فكرة استعمال الخنجر حتى أقنعناه بأن الخنجر هو السلاح الوحيد الذي يفي بالغرض. وقد وجدنا من بيير ميشيل ميلاً إلى التعاون معنا لأن سوزان كانت ابنته الوحيدة، ثم علمنا من هكتور ماكوين أن راتشيت ينوي العودة بقطار الشرق الذي يعمل فيه بيير ميشيل، فكانت الفرصة سانحة. وقررنا أن نستأجر جميع غرف مركبة إسطنبول-كاليه التي يسافر بها راتشيت، ولكن حدث لسوء الحظ أن إحدى الغرف حُجزت لشخص يُدعى السيد هاريس، ولما لم يحضر السيد هاريس هذا نُقلت أنت إلى غرفته في اللحظة الأخيرة.

وصممت لحظة ثم عادت فاستطردت: أنت تعلم كل شيء الآن يا سيد بوارو، فماذا تنوي أن تفعل؟ فإذا كان لا بد من إذاعة نبأ هذه الجريمة فلا بد أن تلقي التهمة عليّ وحدي، فأنا على استعداد لأن أطعن هذا الرجل اثنتي عشرة طعنة لأنه قتل حفيدتي وكان سبباً في موت ابنتي وزوجها، ولا شك أنه ارتكب قبل ذلك جرائم من هذا القبيل، ولا شك أنه لو ترك حياً لارتكب في المستقبل جرائم أخرى، فقد لفظه المجتمع وأصدر حكمه عليه فأنفذنا نحن هذا الحكم.

ثم نظرت إليه برجاء وقالت: ولكنني لا أرى من الضروري أن تُشرك معي كل هؤلاء الأصدقاء المخلصين. يجب أن تتركهم جميعاً وتُلقي التبعة عليّ وحدي، اترك بيير ميشيل المسكين واطرّك ماري والكولونيل فإنهما حبيبان.

وكان صوتها المؤثر يدوي بتلك النبرات التي طالما هزّت قلوب الجمهور في مسارح نيويورك، فالتفت بوارو إلى صديقه السيد بوك ثم قال له: أنت مدير الشركة يا صديقي، فما رأيك؟

فقال السيد بوك: رأيي أن الحلّ الأول أصح. نعم، من المؤكد أن الحلّ الأوّل هو الأصح؛ فالقاتل ارتكب جريمته وفرّ من القطار. هذا ما يجب قوله للشرطة اليوغسلافية. وأنت أيها الطبيب، هل توافق؟

فأجاب الدكتور قسطنطين على الفور: بغير شك، أما فيما يتعلق بتشخيص الإصابة من الوجهة الطبية، فإنه بإمكان الطبيب دائماً أن يُبدي اقتراحات شاذة وأن يؤيّدّها بالأدلة.

فقال بوارو: لقد أدليتُ بآرائي، والآن أتشرف بالانسحاب.

* * *

(تمت)